المقتبس

الدرر الكامنة

ليس احسن من تراجم الرجال للوقوف على حال السياسة والاجتماع في عصر من العصور ففي جملة ماطبع من كتب التراجم والطبقات كتاب خلاصة الاثر في تراجم اهل القرن الحادي عشر للمحبي المتوفى سنة ١١١١ وسلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي المتوفى سنة ١٢٣٣ ولم تطبع تراجم اعيان القرن الثامن والتاسع والعاشر وان كان مثل السبكي في طبقاته والصلاح الكتبي في وفياته قد تعرضا لبعض المترجمين في الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة لحافظ عصره قاضي القضاة شهاب الدين احمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني الاصل المصري والضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ وان لم يدركا من الرجال من جاء بعد ممن ذكرهم صاحب الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة النجم الغزي المتوفى سنة ١٠٦١

وها نحن نتكلم على « الدرر الكامنة » وسنعقبه في الجزئين التاليين بالكلام على الضوء اللامع والكواكب السائرة .

جاء في كشف الظنون : الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة لشهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ اثنتين وخمسين وثمانمائة مجلد ضخم اوله الحمد لله الذي يحيي ويميت الخ جمع فيه تراجم من كان في المائة الثامنة من الاعيان مرتباً على الحروف ذكر في آخره انه فرغ منه في شهور سنة ٨٣٠ ثلاثين وثمانمائة ولم يكمل الغرض لبقايا من التراجم في الزوايا ثم اختصره جلال الدين السيوطي في مجلد ولابن المبرد ايضاً مختصره

اما الكتاب الذي نحن بصدده فمنه في دمشق مخطوط [1] قديم بخط ابراهيم البقاعي مهمل غير منجم وتعسر في الاحايين قراءته وهو في مجلد ضخم من القطع الكبير قال في مقدمته : « اما بعد فهذا تعليق مفيد جمعت فيه تراجم من كان في المائة الثامنة من الهجرة النبوية من ابتداء سنة احدى وسبعمائة الى آخر سنة ثماني مائة من الاعيان والعلماء والملوك والامراء والكتاب والوزراء والادباء والشعراء وعنيت فيه برواة الحديث النبوي فذكرت من اطلعت على حاله واشرت الى بعض مروياته اذ الكثير منهم شيوخ شيوخي وبعضهم ادركته ولم ألقه وبعضهم لقيته ولم اسمع منه وبعضهم سمعت منه وقد استمددت في هذا الكتاب من اعيان العصر لابي الصفا الصفدي ومحاني العصر لشيخ شيوخنا ابي حيان وذهبة العصر لشهاب الدين ابن فضل الله وتاريخ مصر لشيخ شيوخنا الحافظ قطب الدين الحلبي وذيل سير النبلاء للحافظ شمس الدين الذهبي وذيل ذيل المرآة للحافظ علم الدين البرزالي والوفيات للعلامة تقي الدين ابن رافع والذيل عليه للعلامة شهاب الدين ابن حجي ومامجمه صاحبنا تقي الدين المقريزي في اخبار الديار المصرية وخططها ومعاجم كثير من شيوخنا والوفيات للحافظ ابي الحسين بن اسد الدمياطي والذيل عليه لشيخنا الحافظ ابي الفضل بن الحسين العراقي وتاريخ غرناطة للعلامة لسان الدين ابن الخطيب والتاريخ للقاضي ولي الدين ابن خلدون المالكي الى غير ذلك وبالله الكريم عوني واياه اسأل عن الخطإ صوني انه قريب مجيب . »

وهذا المجلد في ٢٦٧ ورقة مرتب على حروف المعجم يميل فيه المؤلف الى الاختصار وفيه من تراجم المشاهير ترجمة ابي جعفر ابن الزبير والشهاب الاذرعي وشيخ الاسلام ابن تيمية وابن فضل الله العمري وعماد الدين ابن كثير وابن الوردي وابن الشهاب محمود وابن المطهر الشيعي والصلاح الصفدي والعلائي والطوفي وابن خطيب داريا وابن عقيل وابن القيم وبرهان الدين القيراطي وابن هشام وابن رجب وابن جماعة والتاج السبكي والاردبيلي والتقي السبكي والسلطان محمود غازان والحافظ البرزالي وابن الاكفاني والحافظ الذهبي وشيخ الربوة ولسان الدين ابن الخطيب والخطيب القزويني والكمال ابن الزملكاني وابن دقيق العيد والبدر البلقيني وابن الوكيل وابن سيد الناس وابن نباتة وابن الحاج وابن المكرم والشمس الفنوني وابو حيان الاندلسي وقطب الدين الشيرازي والبازري والحافظ المزي وغيرهم ممن كانوا غرة ذاك القرن

(١) في خزانة كتب الشيخ اسمعيل الميداني من بيت علم مذكور في دمشق

كما ان فيه من الخاملين ممن لا تسقط لهم على تراجم ولو مختصرة الا في هذا السفر ومن اعظم ما يلفت نظرك في هذا الكتاب روح التعصب التي كانت مستحوذة في ذاك العصر ايام كان يقتل كل من يخالف الجمهور في فكر او مذهب فتقرأ فيه صورة مكبرة من حال ذاك الفرن الذي استولت فيه على هذه البلاد الجراكسة والتتار ممن اصبحوا لعبوة في ايدي المتعصبة من رجال الدين وهلك . اقاله في ترجمة اسمعيل بن سعيد الكردي المقري المصري « تفقه وتميز في القراآت والفقه والعربية وكان طلق العبارة سريع الجواب حسن التلاوة يدري الحاوي والحاجبية ويحفظ الكثير من التوراة والانجيل رمي بالزندقة بسبب انه كان كثير الهزل وحفظت منه كلمات قبيحة حتى صار يقال له اسمعيل الكافر واسمعيل الزنديق وطلب الى تقي الدين الاخنائي وادعي عليه بخلط في كلامه فسجن لجماعة شخص من الصالحين فاخبره انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه فقال له قل : للاخنائي يضرب رقبة اسمعيل فانه سب اخي لوتا فاستدعى به واعد مجلساً وأفتيت عليه البينة بامور معضلة فامر به فقتل بحكم المالكي بن النصرين في السادس والعشرين من صفر سنة عشرين وسبعمائة نقلته من خط القلب وذكر انه حضر ذلك وقال كان قد نظر في المنطق فدخل في كلام لافائدة فيه فضل عليه . وقرأت في تاريخ موسى بن محمد اليوسفي انه كان مشهوراً بالعلم بين الفقهاء وله فضيلة مشهور في الادب » قلنا واقبح بعصر يقتل فيه العالم عقيب رؤيا يراها احد ارباب الخيال .

وممن ضربوا على الزندقة « ناصر بن ابي الفضل بن اسمعيل المقري الصالحي ولد سنة ٦٦٦ ونشأ جميلا جداً وكان صوته مطربا فكان يقرأ في الختم والترب وحفظ التنبيه ثم صحب الياجربتي محي فصار يقع منه كلمات معضلة وسلك سبيل التزهد ودخل الى بغداد مع ركب العراق فيقال انهم نقموا عليه شيئاً وهموا به فتوجه الى ماردين ثم فر منها الى حلب فجرى على عادته في التسطح فانكر عليه كمال الدين بن الزملكاني وهو يومئذ قاضي حلب فقبض عليه وارسله مقيداً الى دمشق فقامت عليه البينة عند القاضي شرف الدين المالكي فاعذر اليه فما ابدى عذراً بل تشهد وصلى ركعتين وجهر بتلاوة القرآن ثم ضربت عنقه وذلك في ربيع الاول سنة ٧٢٦ ويقال انه انشد حين قدم ليقتل

ان كان سفك دمي أقصى مرادهم فما غلت نظرة منهم بسفك دمي

وقال ابن حبيب قلت فيه لما قتل

يا ايها المبتي هيت الى الردى كم تجتري بلسان خب هالك

ارسلت من حلب لحاق موثقا ونقلت بعد الشافعي لمالك

وفي الحاشية نخط ابن حيان الشامي : قال ابن كثير شربت عنده بسوق الخيل على كفره واستهتاره بآيات الله وشركه وصحبته الزنادقة كالنجم ابن خلكان والشمس محمد الباجربي وابن العماد البغدادي قال الشيخ علم الدين : وحضر قتله العلماء والاكابر وارباب الدولة وكان يوماً مشهوداً اعز الله فيه الاسلام (!) واذل فيه الزنادقة واهل البدع وقد شربت مهلكه وكان شيخنا ابن تيمية ايضاً حاضراً يومئذ وقد أذنه وقرعه على ما كان يصدر منه اه »

وقال في ترجمة السكاكيني مانصه : « محمد ابن ابي بكر بن ابي القاسم الهمداني ثم الدمشقي السكاكيني الشيعي ولد سنة ٦٣٥ بدمشق طلب الحديث وتأدب وسمع وهو شاب ابن اسمعيل العراقي والرشيد بن المسلمة ومحمد بن علام في آخرين وتلا بالسبع روى عنه البرزالي والذهبي وآخرون من آخرهم ابو بكر بن المحب وبالاجازة شيخنا برهان الدين التنوخي . وأفسد في صناعة السكاكين عند شيخ رافضي فأفسد عقيدته فاخذ عن جماعة من الامامية وله نظم وقصائد ورد على العفيف التلساني في الاتحاد وام بقرية جسرين مدة وام بالمدينة النبوية عند اميرها منصور بن جماز (؟) ولم يحفظ عنه سب في الصحابة بل له نظم في فضائلهم الا انه كان يناظر على القدر وينكر الجبر وعنده تعبد وسعة علم قال ابن تيمية : هو ممن يتسنن به الشيعي ويتشيع به السني . وقال الذهبي : كان حلو المجالسة ذكياً عالماً فيه اعتزال وينطوي على دين واسلام وتعبد سمعنا منه وكان صديقاً لابي وكان ينكر الجبر ويناظر على القدر ويقال انه رجع في آخر عمره ونسخ صحيح البخاري ووجد بعد موته بمدة في ستة خمسين وسبعمائة بخط يشبه خطه كتاب يسمى الطرائف في معرفة الطوائف يتضمن الطعن على دين الاسلام واورد فيه احاديث مشكلة وتكلم على متونها تكلم عارف لما يقول الا ان واضع الكتاب يدل على زندقة فيه وقال في آخره وكتبه مصنفه عبدالحميد بن داود المصري وشهد جماعة من اهل دمشق انه خطه فاخذه تقي الدين السبكي عنده وقطعه في الليل وغسله بالماء ونسب اليه عماد الدين ابن كثير الابيات التي اولها

ايامعشر الاسلام ذبي دينكم الابيات ومات السكاكيني في صفر سنة ٧٢١ » وفي الحاشية وجزم ابن كثير ان الكتاب الدال على الزندقة خطه وقال : ان فيه انتصاراً لليهود واهل الاديان الفاسدة قال وللملاحدة لم يشهد دفنه القاضي شمس الدين بن مسلم ودفن

بسفح قاسيون وقتل ابنه فيما بعد على قذف أمهات المؤمنين عائشة وغيرها رضي الله عنهما .

وتراجم مثل السكاكيني تؤخذ عن امثال الحافظ الذهبي وكفاه فضلا ان مثل الذهبي والبرزالي يعدان من مفاخرها الاخذ عنه وآثار النصب والحقيقة لاتخفى على من قرأ العبارة الاخيرة . وقال في ترجمة « علي بن الحسن بن ابي الفضل بن جعفر بن محمد ابن كثير الحلبي الرافضي قدم دمشق واقام بها سنوات فاتفق انه شق الصفوف والناس في صلاة جنازة بالجامع الاموي وهو يعلن بسب من ظلم آل محمد فنهره عماد الدين بن كثير وأغرى به العامة وقال ان هذا يسب الصحابة فحملوه الى القاضي تقي الدين السبكي فاعترف بسب ابي بكر وعمر رضي الله عنهما فعقدوا له مجلساً فحكم نائب المالكي بضرب عنقه تعزيراً وزجراً بعد ان كررت عليه التوبة ثلاثة ايام فاصر فضربت عنقه بسوق الخيل وحرق العوام جسده وذلك في جمادى الاولى سنة سبعمائة وخمس وخمسين » .

ومن انعم النظر في تراجم من قتلوا يتضح له انهم كانوا على جانب عظيم من العقل والعلم وان اكثر ماروي عنهم منقول عليهم ليجدوا السبيل الى اقناع العامة والحكام لازهاق ارواحهم

وفي الدرر عدة تراجم من هذا القبيل تدل على انحطاط في ذاك العصر وان الناس كانوا يعمدون للتشفي ممن يحبون الى استفتاء القاضي المالكي لان مذهب مالك يقضي بان يكون التعزير بالقتل او بالحبس والتشهير كما وقع لاحمد بن محمد مري البعلي الحنبلي من اشياع ابن تيمية فرفعوا امره الى القاضي المالكي بالقاهرة « فضربه ضرباً مبرحاً بمحضرته حتى ادماه ثم شهره على حمار اركبه مقلوباً ثم نودي عليه هذا جزاء من يتكلم في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم فكادت العامة تقتله ثم اعيد الى السجن »

ومثل ماوقع لاحمد بن محمد البقفي المصري الاديب العالم فضربوا عنقه بامر القاضي المالكي بالطبع لانه بدت منه كما قيل امور تنبئ بانه مستهزئ بامور الديانة وانه متحل المحرمات

ومثل ماوقع لاحمد بن محمد بن اسمعيل الحلبي الاديب المتصوف فضبطت عليه الفاظ موبقة فرفع امره الى الحاكم بحاب فحكم القاضي المالكي صدر الدين الدميري بسفك دمه فقتل وهو القائل

اذا نلت المنى بصديق صدق فكان وداده وفق المراد

فحاذران تعامله بقرض فان القرض مقراض الوداد

ومثله اسمعيل الكردي واحمد الروسي وعثمان الدكالي وفضل الله ابن اليهودي ومحمد الباجربقي وعلي بن الحسن الرافضي وغيرهم ممن ذهبوا شهداء قضاة المالكية والمتعصبة من العامة وبعضهم كانوا في مظهر علماء وهم الذين اوصلوا الامة الى هذه الدرجة من الافكار والتصور .

ومن الغريب انهم كانوا يخوفون حتى من كان على رأيهم من الفقهاء والعلماء فقد ذكر ابن حجر في ترجمة العلاء ابن العطار ان الشيخ شمس الدين النقيب وغيره تكلم في فتاوى تصدر من ابي الحسن بن العطار وادعوا ان فيها تخبيطاً ومخالفة لمذهب القاضي واجتمعوا عند بعض الحكام فبادر جماعة من محبي الشيخ علاء الدين فقالوا له انهم هيأوا شهادات يشهدون عليك بها فخارت قوته وبادر الى الحنفي وصدرت عليه دعوى فحكم باسلامه وحقن دمه وبقاء جهاته عليه !!!

وها نحن اولاء ننقل ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية لانها تصور لك مزية هذا الكتاب وهي خير ترجمة عثرنا عليها بل تصور لك ذاك العصر الذي كثر فيه تعذيب العلماء قال ابن حجر رحمه الله : « احمد [1] بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله ابن ابي القاسم ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي تقي الدين ابو العباس بن شهاب الدين ابن مجدالدين ولد سنة ٦٦١ وتحول به ابوه من حران سنة ٦٧ فسمع من ابن ابي عبد الدائم والقاسم الاربلي والمسلم ابن علان وابن ابي عمر والفخر في آخرين وقرأ بنفسه ونسخ سنن ابي داود وحصل الاجزاء ونظر في الرجال والعلل وتفقه وتمهر وتميز وتقدم وصنف ودرس وافتى وفاق الاقران وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المنقول والمعقول والاطلاع على مذاهب السلف والخلف

واول ماانكروا عليه من مقالاته في شهر ربيع الاول سنة ٦٩٨ قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحموية [2] وبحثوا معه ومنع من الكلام ثم حضر مع القاضي امام

(١) ساعدنا صديقنا الشيخ جمال الدين القاسمي على استخراج بعض مبهمات وقعت في خط البقاعي والتعليق عليها فنشكر فضله

(٢) المقتبس : طبعت في مصر ضمن الرسائل الثمانية والعشرين ومعها رسالة له في اجوبته عما اعترض به عليه

الدين القزويني فانتصر له وقال هو واخوه جلال الدين : من قال عن الشيخ تقي الدين شيئاً عزرناه

ثم طلب ثاني مرة في سنة خمس وسبعمائة الى مصر فتعصب عليه بيبرس الجاشنكير وانتصر له سلار [1] ثم آل امره الى ان حبس في خزانة البنود مدة ثم نقل في صفر سنة تسع الى الاسكندرية ثم أفرج عنه وأعيد الى القاهرة ثم أعيد الى الاسكندرية

ثم حضر الناصر من الكرك فاطلقه ووصل الى دمشق في آخر سنة ٧١٢ وكان السبب في هذه المحنة ان مرسوم السلطان ورد على النائب باتحانه في معتقده لما وقع اليه من امور تنكر في ذلك فعقد له مجلس في سابع رجب فسئل عن عقيدته فاملى منها شيئاً ثم احضروا العقيدة التي تعرف بالواسطية فقرئ منها وبحثوا في مواضع ثم اجتمعوا في ثاني عشره وقرروا الصفي الهندي يبحث معه ثم أخروه وقدموا الكمال الزملكاني ثم انفصل الامر على انه أشهد على نفسه انه شافعي المعتقد (كذا) ناشاع اتباعه انه انتصر فغضب خصومه ورفعوا واحداً من اتباع ابن تيمية الى الجلال القزويني نائب الحكم بالعادلية فعزره وكذا فعل الحنفي باثنين منهم

ثم في ثاني عشرين رجب قرأ المزيُّ فصلاً من كتاب افعال العباد [2] للبخاري في الجامع فسمعه بعض الشافعية فغضب وقال : نحن المقصودون بهذا ورفعوه الى القاضي الشافعي فامر بحبسه فبلغ ابن تيمية فتوجه الى الحبس فاخرجه بيده فبلغ القاضي فطلع الى القلعة فوافاه ابن تيمية فتشاجرا بحضرة النائب فاشتط ابن تيمية على القاضي لكون نائبه جلال الدين آذى اصحابه في غيبة النائب فامر النائب من ينادي : ان من تكلم في العقائد فعل به كذا . وقصد بذلك تسكين الفتنة

ثم عقد له مجلس في سلخ رجب وجرى فيه بين ابن الزملكاني وابن الوكيل مباحثة فقال : ابن الزملكاني لابن الوكيل ماجرى على الشافعية قليل حتى تكون انت رئيسهم . فظن القاضي نجم الدين ابن صصرى انه عناه فعزل نفسه وقام فاعاده الامراء وولاه النائب وحكم الحنفي بصحة الولاية ونفذها المالكي فرجع الى منزله وعلم ان الولاية لم تصح فصمم على العزل فرسم النائب لنوابه بالمباشرة الى ان يرد امر السلطان

---

(١) سلار كان اكبر نواب الملك الناصر وكان في الدولتين الصالحية والظاهرية اي اكبر الوزراء ويقال ان دخله في كل يوم مائة الف درهم

(٢) طبع في الهند في مجموع فيه اربعة كتب

ثم وصل بريدي في اواخر شعبان بعوده ثم وصل بريدي في خامس رمضان بطلب القاضي والشيخ وان ارسلوا بصورة ماجرى للشيخ في سنة ٦٩٨ ثم وصل مملوك النائب واخبر ان الجاشنكير والقاضي المالكي قد قاما في الانكار على الشيخ وان الامر اشتد بمصر على الحنابلة حتى صفع بعضهم ثم توجه القاضي والشيخ الى القاهرة ومعهما جماعة فوصلا في العشر الاخير من رمضان وعقد مجلس في ثالث عشريه بعد صلاة الجمعة فادعي على ابن تيمية عند المالكي فقال : هذا عدوي ولم يجب عن الدعوى فكرر عليه فامر فحكم المالكي بحبسه فأقيم من المجلس وحبس في برج ثم بلغ المالكي ان الناس تتردد اليه فقال : يجب التضييق عليه ان لم يقتل والا فقد ثبت كفره [1] فنقلوه ليلة عيد الفطر الى الجب وعاد القاضي الشافعي على ولايته ونودي بدمشق : من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة . فنودي بذلك وقرئ المرسوم قرأه ابن الشهاب محمود في الجامع ثم جمعوا الحنابلة من الصالحية وغيرها واشهدوا على انفسهم انهم على معتقد الامام الشافعي (؟)

(١) في محاكمة الاحمدين ومازال النفس ولا سيما الكبراء والعلماء يبتلون في الله تعالى ويصبرون وقد كانت الانبياء عليهم السلام يقتلون واهل الخير في الامم السالفة يقتلون ويحرقون وينشر احدهم بالمنشار وهو ثابت على دينه وقد سم ابو بكر وقتل عمر وعثمان وعلي وسم الحسن وقتل الحسين وابن الزبير وصلب حبيب بن عدي وقتل الحجاج عبد الرحمن ابن ابي ليلى وسعيد بن جبير وغيرهما وقتل زيد بن علي . واما من ضرب من كبار العلماء فكثيرون منهم عبد الرحمن بن ابي ليلى ضربه الحجاج اربعمائة سوط ثم قتله وسعيد ابن المسيب ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط وصب عليه جرة ماء في يوم شات والبس جبة صوف وخبيب بن عبد الله بن الزبير ضربه عمر بن عبد العزيز بامر الوليد مائة سوط وذلك انه حدث عن النبي صلى الله عليه تعالى عليه وسلم انه قال اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا فكان عمر اذا قيل له ابشر قال : كيف بجبب على الطريق وابو عمرو بن العلاء ضربه بنو امية خمسمائة سوط والامام موسى الكاظم سجنه هرون حتى مات والامام ابو حنيفة توفي في السجن بعد ان ضرب وقيل انه جرع سماً والامام مالك بن انس ضربه المنصور ايضاً سبعين سوطاً في يمين المكره وكان يقول لا يلزمه اليمين والامام احمد امتحن وسجن وضرب في ايام بني العباس وللشيخ ابن تيمية في هؤلاء الائمة أسوة .

وذكر ولد الشيخ جمال الدين ابن الظاهري في كتاب كتبه لبعض معارفه بدمشق ان جميع من بمصر من القضاة والشيوخ والفقراء والعلماء والعوام يحطون على ابن تيمية الا الحنفي فانه يتعصب له والا الشافعي فانه ساكت عنه وكان من اعظم القائمين عليه الشيخ نصر المنبجي لانه كان بلغ ابن تيمية انه يتعصب لابن العربي فكتب اليه كتاباً يعاتبه على ذلك فما اعجبه لكونه بالغ في الحط على ابن العربي وتكفيره فصار هو يحط على ابن تيمية ويغري به ببرس الجاشنكير . وكان ببرس يفرط في محبة نصر ويعظمه

وقام القاضي زين الدين ابن مخلوف قاضي المالكية مع الشيخ نصر وبالغ في أذية الحنابلة . واتفق ان قاضي الحنابلة شرف الدين الحراني كان قليل البضاعة في العلم فبادر الى اجابتهم في المعتقد واسلموه خطه بذلك واتفق ان قاضي الحنفية بدمشق وهو شمس الدين ابن الحريري انتصر لابن تيمية وكتب في حقه محضراً بالثناء عليه بالعلم والفهم وكتب منه بخطه ثلاثة عشر سطراً من جملتها انه : « منذ ثلاثة سنة ما رأى الناس مثله » فبلغ ذلك ابن مخلوف فسعى في عزل ابن الحريري فعزل وقرر عوضه شمس الدين الاذرعي ثم لم يلبث الاذرعي ان عزل في السنة المقبلة وتعصب سلار لابن تيمية واحضر القضاة الثلاثة الشافعي والمالكي والحنفي وتكلم معهم في اخراجه فاتفقوا على انهم يشترطون معه شروطاً وان يرجع عن بعض العقيدة فارسلوا اليه مرات فامتنع من الحضور اليهم واستمر

ولم يزل ابن تيمية في الجب الى ان شفع فيه مهنا امير آل فضل فأخرج في ربيع الاول في الثالث والعشرين منه وأحضر الى القلعة ووقع البحث مع بعض الفقهاء وكتب عليه محضر بانه قال : انا أشعري ثم وجد[1] خطه بما نصه : الذي اعتقد ان القرآن معنى قائم بذات الله وهو صفة من صفات ذاته القديم وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت وان قوله الرحمن على العرش استوى ليس على ظاهره ولا اعلم كنه المراد بل لا يعلمه الا الله والقول في النزول كالقول في الاستواء وكتبه احمد بن تيمية

ثم اشهدوا عليه انه تاب مما ينافي ذلك مختاراً وذلك في خامس عشرين ربيع الاول

(١) المقتبس : في هذه الواجادة نظر لان ابن تيمية قد ملأ الدنيا بفتاويه وهو في مجموعه التي تخالف مايقوله خصومه كما يعلمه من راجع فتاويه المصرية التي طبع منها ثلاث مجلدات

سنة سبع وسبعمائة وشهد عليه بذلك جمع جم من العلماء وغيرهم وسكن الحال وأفرج عنه وسكن القاهرة

ثم اجتمع جمع من الصوفية عند تاج الدين ابن عطاء فطعنوا في العشر الاوسط من شوال الى القلعة وشكوا ابن تيمية انه يتكلم في حق مشايخ الطريق وانه قال لايستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم فاقتضى الحال ان أمر بالمسير الى الشام فتوجه على خيل البريد وكل ذلك والقاضي زين الدين ابن مخلوف مشتغل بنفسه بالمرض وقد اشرف على الموت وبلغه سفر ابن تيمية فراسل النائب فرده من بلبيس وادعى عليه عند ابن جماعة وشهد عليه شرف الدين ابن الصابوني وقيل ابن علاء الدين القونوي ايضاً شهد عليه فاعتقل بسجن حارة الديلم في ثامن عشر شوال الى سلخ صفر سنة تسع وسبعمائة فنقل عنه الى جماعة يترددون اليه وانه يتكلم في نحو ماتقدم فامر بنقله الى الاسكندرية فنقل اليها في سلخ صفر وكان سفره صحبة امير مقدم ولم يمكن احداً من جهته من السفر معه وحبس ببرج ثم رقي ثم توجه اليه بعض اصحابه فلم يمنعوا منه فتوجهت طائفة منهم بعد طائفة وكان موضعه فسيحاً فصار الناس يدخلون اليه ويقرؤون عليه ويبحثون معه . قرأت ذلك في تاريخ البرزالي فلم يزل الى ان عاد الناصر الى السلطنة فشفع فيه عنده فامر باحضاره فاجتمع به في ١٨ شوال سنة تسع فاكرمه وجمع القضاة واصلح بينه وبين القاضي المالكي فاشترط المالكي ان لايعود فقال له السلطان : قد تاب . وسكن بالقاهرة وتردد الناس اليه الى ان توجه صحبة الناصر الى الشام بنية الغزاة في سنة ١٢ وذلك في شوال فوصل دمشق في مستهل ذي القعدة فكانت مدة غيبته عنها اكثر من سبع سنين وتلقاه جمع كثير فرحاً بقدومه وكانت والدته اذ ذاك في قيد الحياة

ثم قاموا عليه في شهر رمضان سنة ١٩ بسبب مسألة الطلاق واكد عليه المنع من الفتيا ثم عقد له مجلس آخر في رجب سنة عشرين ثم حبس بالقلعة ثم أخرج في عاشوراء سنة احدى وعشرين ثم قاموا عليه مرة اخرى في شعبان سنة ٢٦ بسبب مسألة الزيارة واعتقل بالقلعة فلم يزل بها الى ان مات في ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨

قال الصلاح الصفدي : كان كثيراً ماينشد في :

تموت النفوس باوصابها ولم يدر عوادها مابها
وما انصفت مهجة تشتكي أذاها الى غير احبابها

وكان ينشد كثيراً :

من لم يقد ويدس في خبثومه رهج الخميس فان يعود خميسا

وأنشد له على لسان الفقراء :

والله مافقرنا اختيار وانما فقرنا اضطرار
جماعة كنا كمالى واكلنا ماله عيار
تسمع منا اذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار

وسرد اسماء تصانيفه في ثلاثة اوراق كبار واورد فيه من امداح اهل عصره كابن الزملكاني قبل ان ينحرف عنه وكأبي حيان كذلك وغيرهما قال ورثاه محمود بن علي الدقوقي ومحبر الدين الخياط وصفي الدين عبد المؤمن البغدادي وجمال الدين ابن الاثير وتقي الدين محمد بن سليمان الجعبري وعلاء الدين ابن غانم وشهاب الدين ابن فضل الله وزين الدين ابن الوردي وجمع جم واورد لنفسه فيه مرثية على قافية الضاد المعجمة

قال الذهبي ماملخصه : كان يقضي منه العجب اذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه قال : وما رأيت اسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ولااشد استحضاراً للمتون وعزوها منه كأن السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وعين مفتوحة وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه واما اصول الديانة ومعرفة احوال المخالفين فكان لايشق غباره فيه هذا مع ما كان عليه من الكرم والشجاعة والفراغ عن ملاذ النفس ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلثمائة مجلد بل اكثر وكان قوالاً بالحق لاتأخذه في الله لومة لائم

قال : ومن خالطه وعرفه قد ينسبني الى التقصير فيه ومن نابذه وخالفه قد ينسبني الى التغالي فيه . وقد أوذيت من الفريقين من اصحابه واضداده وكان ابيض اسود الرأس واللحية قليل الشيب شعره الى شحمة أذنيه كأن عينيه لسانان ناطقان . ربعة من الرجال بعيد مابين المنكبين جهوري الصوت فصيحاً سريع القراءة تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم

قال : ولم ار مثله في ابتهاله واستغاثته بالله وكثرة توجهه وانا لاأعتقد فيه عصمة بل انا مخالف له في مسائل اصلية وفرعية فانه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه ونفاذه لحرمات الدين يشراً من البشر تعتريه حدة في البحث وغضب وشظف للخصم تنزع له عداوة في النفوس والا لو لاطف خصومه اكان كلمة اجماع كان كبارهم

خاضعين لعلومه معترفين بشفوفه مقرين بندور خطائه وانه بحر لاساحل له وكنز لانظير له ولكن ينقمون عليه اخلاقاً وافعالاً وكل احد يؤخذ من قوله ويترك

قال : وكان محافظاً على الصلاة والصوم معظماً للشرائع ظاهراً وباطناً لايأتي من سوءفهم فان له الذكاء المفرط ولا من قلة علم فانه بحر زخار ولا كان متلاعباً بالدين ولاينفرد بمسائل بالتشهي ولايطلق لسانه بما اتفق بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس ويبرهن ويناظر أسوة من تقدمه من الائمة فله أجر على خطائه واجران على اصابته الى ان قال :

تمرض اياماً بالقلعة تمرضاً جداً الى ان مات ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة وصلي عليه بجامع دمشق وصار يضرب بكثرة من حضر جنازته المثل واقل ماقيل في عددهم انهم خمسون الفاً

قال الشهاب بن فضل الله لماقدم ابن تيمية على البريد الى القاهرة في سنة سبعمائة نزل عند عمي شرف الدين وحض اهل المملكة على الجهاد واغلظ القول للسلطان والامراء ورتبوا له في مدة اقامته في كل يوم ديناراً ومخفقة طعام فلم يقبل من ذلك وارسل له السلطان بقجة قماش فردها قال ثم حضر عنده شيخنا ابو حيان فقال مارأت عيناي مثل هذا الرجل ثم مدحه بابيات ذكر انه نظمها بديهة وانشده اياها

لما اتانا تقي الدين لاح لنا ... داع الى الله فرد ماله وزر
على محياه من سيما الاولى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهره حبراً ... بحر تقاذف من امواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم اذ عصت مضر
واظهر الحق اذ آثاره اندرست ... واخمد الشر اذ طارت له شرر
كما تحدث عن حبر يجيء فها ... انت الامام الذي قد كان ينتظر

قال ثم دار بينهما كلام فجرى ذكر سيبويه فاغلظ ابن تيمية القول في سيبويه فناقره ابو حيان وقطعه بسببه ثم عاد ذاماً له وصير ذلك ذنباً لايغفر قال : وحج ابن المحب سنة ٧٣٤ فسمع من ابي حيان اناشيد فقرأ عليه هذه الابيات فقال قد كشطتها من ديواني ولا اذكره فسأله عن السبب فقال : ناظرته في شيء من العربية فذكرت له كلام سيبويه فقال ليس بشيء قال ابوحيان : وهذا لايستحق الخطاب ويقال ان ابن تيمية قال له ما كان سيبويه نبي النحو ولا كان معصوما بل اخطأ في اكثر من اربعين موضعاً ما تفهمها انت

فكان ذلك سبب مقاطعته اياه وذكره في تفسيره البحر بكل سوء وكذلك في مختصره النهر ورثاه شهاب الدين ابن فضل الله بقصيدة رائية مليحة وترجم له ترجمة هائلة تنقل من المسالك ان شاء الله تعالى . ورثاه زين الدين ابن الوردي بقصيدة لطيفة طائية[1] قال كمال الدين السرمري في امالية : ومن عجائب ماوقع في الحفظ من اهل زماننا ان ابن تيمية كان يمر بالكتاب فيطالعه مرة فينقش في ذهنه وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه

(١) اليك قصيدة ابن الوردي نقلا عن ديوانه المطبوع في الجوائب

عشا في عرضه قوم سلاط ... لهم من ثثر جوهره التقاط
(تقي الدين احمد) خير حبر ... خروق المعضلات به تخاط
توسيفي وهو محبوس فريد ... وليس له الى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألقوا ... ملائكة النعيم به احاطوا
ففي نجدا وليس له قرين ... ولا كنظيره الف القماط
فريدا في ندى كف وعلم ... وحل المشكلات به يناط
وكان الى التقى يدعو البرايا ... وينهى فرقة فسقوا ولاطوا
وكان يخاف ابليس سطاه ... بوعظ للقلوب هو السياط
فيا لله ماذا ضم لحد ... ويا لله ماغطى البلاط
هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طرائقه كسالى ... ولكن في اذاه لهم نشاط
وحبس الدر في الاصداف فخر ... وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا
بنو تيمية كانوا فبانوا ... نجوم العلم ادركها انهباط
ولكن يا ندامة حاسديه ... نشك الشرك كان به يماط
الم يك فيكم رجل رشيد ... يرى سجن الامام فيستشاط
ويا فرح اليهود بما فعلتم ... فان الضد يعجبه الخباط
امام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جارا كم في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغظتموه ... اما لجزا اذيته اشتراط

وقال الافشهري في رحلته في حق ابن تيمية : بارع في الفقه والاصلين والفرائض والحساب وفنون أخرى وما من فن الا وله فيه يد طولى وقلمه ولسانه متقاربان

قال الطوفي : سمعت يقول : من سألني مستفيداً حققت له ومن سألني متعنتاً ناقضته فلا يلبث ان ينقطع فاكفي مؤنته وذكر تصانيفه وقال في كتابه ابطال الحيل : عظيم النفع : وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر مالايقدر احد على ان يورده في عدة مجالس كأن هذه العلوم بين عينيه فيأخذ منها مايشاء ويذر . ومن ثم نسب اصحابه الى الغلو فيه واقتضى له ذلك العجب بنفسه حتى زها على ابناء جنسه واستشعر انه مجتهد فصار يرد على صغير العلماء وكبيرهم قديمهم وحديثهم حتى انتهى الى عمر فخطأه في شيء فبلغ الشيخ ابراهيم الرقي فانكر عليه فذهب اليه واعتذر واستغفر وقال في حق علي : اخطأ في سبعة عشر شيئاً ثم خالف فيها نص الكتاب منها اعتداد المتوفى عنها زوجها اطول الاجلين . وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع في الاشاعرة حتى انه سب الغزالي فقام عليه قوم كادوا يقتلونه ولما قدم غازان بجيوش التتر الى الشام خرج اليه وكلمه بكلام قوي فهم بقتله ثم نجا واشتهر امره من يومئذ

واتفق ان الشيخ نصراً المنبجي كان قد تقدم في الدولة لاعتقاد بيبرس الجاشنكير فيه فبلغه ان ابن تيمية يقع في ابن العربي لانه كان يعتقد انه مستقيم وان الذي ينسب اليه من الاتحاد او الالحاد من قصور فهم من ينكر عليه فارسل ينكر عليه فكتب اليه كتاباً طويلاً ونسبه واصحابه الى الاتحاد الذي هو حقيقة الالحاد فعظم ذلك عليهم واعانه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات في العقائد منكرة (؟) ووقعت منه في مواعيده

وسجن الشيخ لايرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط
اما والله لولا كتم سربي ... وخوف الشر لانحل الرباط
وكنت اقول ماعندي ولكن ... باهل العلم ماحسن اشتطاط
فما احد الى الانصاف يدعو ... وكل فيه هواه له انخراط
سيظهر قصدكم ياحاسديه ... ونيتكم اذا نصب الصراط
فها هو مات عنكم واسترحتم ... فماطوا ما اردتم ان تعاطوا
وحلوا واعتدوا من غير رد ... عليكم وانطوى ذاك البساط

وفتاويه فذكروا انه ذكر حديث النزول تنزل عن المنبر (١) درجتين فقال : كنزولي هذا . فنسب الى التجسيم ورده عَلَى من توصل بالنبي صلى الله عليه وسلم اواستغاث فأشخص من دمشق في رمضان سنة خمس (بعد السبعمائة) فجرى عليه ماجرى وحبس مرارا فاقام عَلَى ذلك نحو اربع سنين او اكثر وهو مع ذلك يشتغل ويفتي الى ان اتفق ان الشيخ نصراً قام عَلَى الشيخ كريم الدين الايلي شيخ خانقاه سعيد السعداء فاخرجه من الخانقاه وعَلَى شمس الدين الحريري فاخرجه من تدريس الشربفية فيقال ان الايلي دخل الخلوة بصرار بعين يوماً فلم يخرج حتى زالت دولة بيبرس وحمل ذكر نصر واطلق اين تيمية الى الشام

وافترق الناس فيه شيعاً فمنهم من نسبه الى التجسيم لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك كقوله ان اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله وانه مستوي عَلَى العرش بذاته فقيل له يلزم من ذلك التحيز والانقسام فقال انا لااسلم ان التحيز والانقسام من خواص الاجسام فالزم بانه يقول ثبت (؟) التحيز في ذات الله تعالى

ومنهم من ينسبه الى الزندقة لقوله ان النبي صلى الله عليه وسلم لايستغاث به وان في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اشد الناس عليه في ذلك النور البكري فانه لما عقد له المجلس بسبب ذلك قال بعض الحاضرين : يعزر فقال البكري لامعنى لهذا القول فانه ان كان تنقيصاً يقتل وان لم يكن تنقيصاً لايعزر

ومنهم من ينسبه الى النفاق لقوله في علي ماتقدم ولقوا انه كان محذولا حيث ماتوجه وانه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها وانما قاتل للرياسة لا للديانة ولقوله انه كان يحب الرياسة (٢) وان عثمان كان يحب المال ولقوله ابو بكر اسلم شيخاً لايدري مايقول وعلي اسلم صبياً والصبي لايصح اسلامه عَلَى قول ولكلامه في قصة خطبة ابنة ابي جهل وما فيها من الثناء عَلَى ... وقصة ابي العاص بن الربيع ومايوجد من مفهومها فانه مشنع بذلك فالزموه بالنفاق لقوله صلى الله عليه وسلم ولا يبغضك الا منافق

ونسبه قوم الى انه يسعى في الامامة الكبرى فانه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه فكان ذلك موجباً لطول سجنه وله وقائع شهيرة وكان اذا حوقق والزم يقول لم ارد هذا انما اردت كذا فيذكر احتمالا بعيداً قال : وكان من اذكياء العالم وله في ذلك امور

(١) هو محل التدريس لا منبر الخطابة المعروف في المساجد اليوم

(٢) في كتابه منهاج السنة مايكذب هذه الفرية عَلَى شيخ الاسلام

عظيمة منها ان محمد بن ابي بكر السكاكيني عمل ابياتاً عَلَى لسان ذمي في انكار القدر واولها:

ايا علماء الدين ذمي دينكم تحير دلوه باعظم حجة
اذا ماقضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

فوقف عليها ابن تيمية فمشى احدى رجليه عَلَى الاخرى واجاب في مجلسه قبل ان يقوم بمائة وتسعة عشر بيتا اولها

سؤالك ياهذا سؤال معاند مخاصم رب العرش باري البرية[1]

وقال شيخ شيوخنا الحافظ ابن سيد الناس في ترجمة ابن تيمية وهو الذي حدا بي عَلَى رؤية الشيخ الامام شيخ الاسلام تقي الدين قال: فالفيته ممن ادرك من العلوم حظاً، وكان يستوعب السنة والآثار حفظاً ان تكلم في التفسير فهو حامل رايته او الفقه فهو مدرك غايته او ذاكر في الحديث فهو صاحب عمله وروايته، اوحاضر بالملل والنحل لم ير اوسع من نحلته في ذلك ولا ارفع من درايته، يرز في كل فن عَلَى ابناء جنسه، فلم ترعين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه. كان يتكلم في التفسير، فيحضر مجلسه الجم الغفير، ويردون من بحره العذب الغمير، ويرتعون من ربع فضله في روضة وغدير، الى ان دب اليه من اهل بلده داء الحسد وألب اهل النظر منهم عَلَى ما ينتقد عليهم من امور المعتقد، فحفظوا عنه في ذلك كلاماً اوسعوه بسببه ملاماً، وفوقوا لتبديعه سهاماً، وزعموا انه خالف طريقهم، وفرق فريقهم، فنازعوه ونازعوه، وقاطع بعضهم وقاطعوه، ثم نازعه طائفة اخرى ينسبون من الفقر الى طريقة، ويزعمون انهم عَلَى ادق باطن منها واجلى حقيقة، وكشف تلك الطرائق، وذكر لها مراغم وموابق، فآضت الى الطائفة الاولى من منازعته، واستعانت بذوي الضغن عليه من مقاطعته، فاوصلوا الى الامراء امره، واعمل كل منهم في كفره فكره، فرتبوا المحاضر، وألهبوا الرويضة (؟) للسعي بها عند الاكابر وسعوا في نقله الى حاضرة المملكة بالديار المصرية فنقل، واودع السجن ساعة حضوره واعتقل، وعقدوا لاراقة دمه مجالس، وحشدوا لذلك قوماً من عمار الزوايا وسكان المدارس، من عامل في المنازعة، ومحاتل بالخادعة ومجاهر بالتكفير مبارز بالمقاطعة، يسمونه رب المنون، وربك يعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون، وليس المجاهر بكفره باسوأ حالاً من المجامل وقد دبت اليه عقارب مكره، فرد الله كيد كل في نحره، وبجاه

(١) شرح نجم الدين الطوفي جواب شيخ الاسلام في نحو كراسين شرحاً لطيفاً وهو موجود في بعض مكاتب دمشق

على يد من اصطفاه والله غالب على امره ، ثم لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة ، ولم ينتقل طول عمره من محنة الا الى محنة ، الى ان فوض امره الى بعض القضاة فتقلد ماتقلد من اعتقاله ، ولم يزل يمجسه ذلك الى حيث ذهابه الى رحمة الله تعالى وانتقاله والى الله ترجع الامور ، وهو المطلع على خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، وكان يومه مشهوداً ضاقت بجنازته الطريق ، واتنابها المسلمون من كل فج عميق ، يتبركون بمشهده يوم تقوم الاشهاد ، ويتمسكون بسريره حتى كسروا تلك الاعواد .

وقال الذهبي مترجماً له في بعض الاجازات : قرأ القرآن والفقه وناظر واستدل وهو دون البلوغ وبرع في العلم والتفسير وافتى ودرس وهو دون العشرين وصنف التصانيف وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه وتصانيفه نحو اربعة آلاف كراسة واكثر .

وقال في موضع آخر واما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلاً عن المذاهب الاربعة فليس له فيه نظير وفي موضع آخر وله باع طويل في معرفة احوال السلف وقلّ ان تذكر مسألة الا ويذكر فيها مذاهب الائمة وقد خالف الائمة الاربعة في عدة مسائل صنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة ولما كان معتقلا بالاسكندرية التمس منه صاحب سبتة ان يجيز له بعض مروياته فكتب له جملة من ذلك في عشرة اوراق باسانيده ومن حفظه بحيث يعجز ان يعمل بعضه اكبر من يكون واقام عدة سنين لايفتي بمذهب معين .

وقال في موضع آخر : بصيراً بطريقة السلف واحتج له بادلة وامور لم يسبق اليها واطلق عبارات احجم عنها غيره حتى قام عليه خلق من العلماء بالمصرين فبدعوه وناظروه وهو ثابت لايداهن ولايحابي بل يقول الحق اذا اداه اليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته فجرى بينهم حملات جزئية ووقعات شامية ومصرية ورموه عن قوس واحدة ثم نجاه الله سبحانه وتعالى وكان دائم الاشتغال كثير الاستغاثة قوي التوكل رابط الجأش له اوراد واذكار يدمنها

وكتب الذهبي الى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فاجابه ومن جملة الجواب : واما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يعتقد كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف والمملوك يقول ذلك دائماً وقدره في نفسي اكثر من ذلك

واجل مع ماجمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف واخذه من ذلك بالمأخذ الاوفى وغرابة مثله في هذا الزمان بل من ازمان

وقرأت بخط الحافظ صلاح الدين خليل العلائي في ثبت شيخ شيوخنا الحافظ بهاء الدين عبدالله محمد بن خليل مانصه : وسمع بهاء الدين المذكور على الشيخين شيخنا وسيدنا وامامنا فيما بيننا وبين الله تعالى شيخ التحقيق السالك بمن اتبعه احسن طريق ذي الفضائل المتكاثرة والحجج الباهرة التي اقرت الامم كافة ان شمها عن حصره قاصرة منعنا الله بعلومه الفاخرة ونفعنا به في الدنيا والآخرة وهو الشيخ الامام العالم الرباني والحبر البحر القطب النوراني امام الائمة بركة الامة علامة العلماء وارث الانبياء آخر المجتهدين اوحد علماء الدين شيخ الاسلام حجة الاعلام تقي الدين ... سيف المناظرين بحر العلوم كنز المستفيدين ترجمان القرآن أعجوبة الزمان فريد العصر والاوان ... حجة الله على العالمين اللاحق بالصالحين والشبه للماضين مفتي الفرق ناصر الحق علامة الهدى عمدة الحفاظ ركن الشريعة كنز المعاني والالفاظ ذي الفنون البديعة ابي العباس ابن تيمية اه »

هذه ترجمة نابغة الاسلام واعجوب علماء القرون الوسطى ولو لم يكن في هذا الكتاب سوى ترجمته لكان كافيا في طبعه والكتاب نسخة نفيسة نادرة في بابها لان ناسخه عالم محقق ويعتاد الانسان قراءة خطه على اعجامه بعد قراءة بضع صفحات منه وقد طمست بعض سطوره من اوائل بعض الصفحات لماء او رطوبة اصابته ولكن يسهل اثبات الصحة ولو بمراجعة بعض المظان المطبوعة وغيرها

والكتاب كما تقدم بخط البرهان البقاعي المفسر قال في آخره : قال شيخنا شيخ الاسلام والحفاظ مصنفه ومن خطه نقلت النسخة التي نقلت منها هذه فرغ منه جامعه سوى ما الحق فيه بعد تاريخ فراغه في شهور سنة ثلاثين وثماني مائة ثم الحق فيه الى سنة سبع وثلاثين ولم يكمل الغرض من الالحاق لبقايا من التراجم في زوايا لم استوعبها بعد اعان الله تعالى على استكمال ذلك بمنه وكرمه آمين . قلت (البقاعي) وكانت كتابتي فيه للنسخة الاولى في ربيع الآخر سنة ٨٥٥ وعسر علي قراءة كثير من النظم الذي في التراجم وغير ذلك ثم نقلته كذلك الى هنا والمرجو من فضل الله تعالى تحرير

ذلك ومقابلته جميعه على الاصل المنقول منه ان تيسر او يحرر ذلك من اصوله ان شاء الله تعالى وكان فراغي من هذه في ١٧ شوال سنة ٨٥٩ بمنزلي بحارة بهاء الدين في القاهرة اه

اما ابن حجر العسقلاني فهو شهاب الدين احمد بن علي بن محمد بن حجر نسبة الى حجر قوم تسكن الجنوب العسقلاني الاصل المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة ولد سنة سبعمائة وثلاث وسبعين وتوفي سنة ثمانمائة واثنتين وخمسين والمؤلف هذا معدود من ائمة الشافعية وله غير ذلك من الكتب منها تاريخ مرتب على السنين (١) سماه انباء الغمر في ابناء العمر وفي المكتبة الظاهرية مسودته بخط مؤلفه وهي لاتكاد تقرأ لما فيها من سقم الحروف والشطب والتعليق قال في مقدمته : وبعد فيقول العبد الضعيف احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن احمد بن محمود بن احمد بن حجر العسقلاني الاصل المصري المولد القاهري الدار هذا تعليق جمعت فيه حوادث الزمان منذ مولدي سنة ثلاث وسبعين وسبع مائة وهلم جرا مفصلا في كل سنة احوال الدول ووفيات الاعيان مستوعبا لرواة الحديث خصوصا من لقيته او اجاز لي الى ان قال وسميته انباء الغمر بابناء العمر

وهاك نموذجا من تأليفه : سنة سبع وسبعين وسبع مائة : فيها في المحرم ظهر السلطان اولاده وعمل لهم « مهيا » عظيما انفق فيه من الاموال مالا يحصى وظهرت فيه من الفواحش والقبائح مالا مزيد عليه واستمر ذلك سبعة ايام . سنة اربع وسبعين وسبع مائة : وفيها كان الوباء بدمشق فدام مدة تسعة اشهر وبلغ العدد في كل يوم مائتي نفر . سنة اربع وتسعين وسبع مائة : هجم على النائب بدمشق خمس انفس فقتلوه واخرجوا من الحبس من الميكاسه (؟) وهم نحو مائة نفر وملكوا القلعة لحاجبهم الحاجب في عسكر دمشق وضيق عليهم الى ان غلبوا فاحرق عليهم الباب وامسكوا الثائرين فلم يبقوا منهم الا من هرب

وقال في اول الجزء الثاني وهو يبتدئ باول القرن التاسع من الهجرة مانصه : دخلت سنة احدى وثماني مائة وسلطان مصر والشام والحجاز الملك الظاهر ابو سعيد برقوق وسلطان الروم ابو يزيد بن عثمان وسلطان اليمن من نواحي تهامة الملك الاشرف

(١) جلاء العينين في محاكمة الاحمدين للآلوسي

ومن نواحي الجبال الامام الزيدي الحسني وسلطان المغرب الادنى ابو فارس عبدالعزيز الحفصي وسلطان المغرب الاوسط المريني وسلطان المغرب الادنى ابن الاحمر وصاحب البلاد الشرقية تيمور وكان المعروف باللنك وصاحب بغداد احمد بن ادريس وامير مكة حسن بن عجلان والخليفة العباسي ابو عبدالله محمد المتوكل على الله ويدعى امير المؤمنين وينازعه بهذا الاسم الامام الزيدي وبعض ملوك المغرب وصاحب اليمن .

وقد امتد الكتاب الى سنة خمسين وثمانمائة وبدئ به سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وقد ذكر صاحب كشف الظنون اذيالا لانباء الغمر فمن اراد ان نظفر بالاصل والفرع ويطبعا كما يطبع الدرر الكامنة

واما ناسخ الكتاب فهو البرهان البقاعي صاحب المناسبات ترجم له الضوء اللامع ترجمة مطولة وكلها مطاعن لانهما تدارسا العلم في سن الطلب واستفاد كل منهما من الآخر على عادة الطلبة فما قاله فيه انه ابراهيم بن عمر البقاعي برهان الدين وكنى نفسه ابا الحسن الخربوي البقاعي صاحب تلك العجائب والنوائب والقلاقل والمسائل المتعارضة المتناقضة ولد فيما زعم تقريباً سنة تسع وثمانمائة بقرية يقال لها خربة روحا من عمل البقاع ونشأ بها ثم تحول الى دمشق ثم فارقها ودخل بيت المقدس ثم القاهرة قال ووقائعه كثيرة واحواله شهيرة ودعاويه مستفيضة اهلكه التيه والعجب وحب الشرف والسمعة بحيث زعم انه قيم العصريين بكتاب الله وسنة رسوله الى غير ذلك من المطاعن التي وجهها اليه وظهرت فيها نواجذ الشر والعداوة على انه من اهل العلم المذكورين في عصره والمعدودين من محاسن دهره ولو لم يكن له الا تفسيره في تناسب الآيات والسور الذي لم يؤلف في الاسلام مثله لكفاه فضلا ورحل في آخر امره الى دمشق واتخذها موطنا وتوفي في رجب سنة ٨٨٥ ودفن في مقبرة الحمرية ظاهر الشويكة في دمشق الشام ويوجد في المكتبة الظاهرية من تفسيره المنوه به نسختان عورضت احداهما على مؤلفها وبها خطه رحمه الله

المسلمون والبولونيون

في الغرب من مملكة روسيا وفي الجنوب من بروسيا وفي الشمال من النمسا بلاد متنائية الاطراف واسعة البقاع مخصبة الرباع كثيرة الانهار والغابات والمناجم اسمها بولونيا اي السهل باللغة الصقلبية وهي المعروفة في تواريخ الاتراك باسم « لهستان » ففي عليها نكد الطالع ان تفقد استقلالها لاختلاف كلمة امرائها وابنائها منذ نحو قرن ونصف فتقاسمتها روسيا والنمسا والمانيا وتبلغ مساحة بولونيا الروسية وفيها عاصمة البلاد القديمة « فارسوفيا » ١٢٧٠٣١٩ كيلومتراً مربعاً وسكانها ٩٩٤٥٦٠٠٠ واذا اضفنا اليهم سكان بولونيا النمسوية وبولونيا الالمانية يبلغ عددهم نحو عشرين مليوناً بحسب تقدير الجغرافيات الحديثة من اهل اوربا يدين نحو نصفهم بالكثلكة وباقيهم اسرائيليون وبرتستانت ومسلمون تاتار

ومناخ هذه البلاد شديد ولكنه معتدل في الجملة اذا قيس بمناخ روسيا وهو حار في الصيف بارد جداً في الشتاء وتقل فيها الثلوج وتجمد الانهار في الشتاء من شهرين ونصف الى ثلاثة اشهر ونصف وقد انتشرت فيها الصناعات لكثرة مافيها من الفحم الحجري فاصبحت اهم اقاليم روسيا من هذه الوجهة اما التجارة فتكاد تكون محصورة في ايدي الاسرائيليين

وتاريخ هذه الامة القديم غامض اشبه باساطير حتى القرن التاسع للميلاد وغاية مايعلم ان هذه الاقطار الممتدة بين البحر الاسود وبحر البلطيق كان يسكنها في الاصل شعوب اسمها الانقس والهنت والفائد ثم نزلها الصقالبة . واول زعيم انشأ مملكة بولونيا فلاح صالح اسمه بياست فحكمها الى سنة ١٣٣٣ ودخلت النصرانية الى بولونيا على يد ميسيسلاس الاول (٩٦٢—٩٩٢) وانضمت بلاد ليتوانيا الى بولونيا في القرن الرابع عشر بزواج هدويج ابنة كازمير الاول (١٣٣٣—١٣٧٠) من لاديسلاس جاجلون

وفي اوائل القرن الخامس عشر اي وفي العهد الذي بدأت تنشأ فيه اوربا ممالك مطلقة الحكم مستبدة السلطان بدأ الفشل السياسي والفوضى الادارية تدب في مملكة بولونيا مما عجل نفسيمها وحذفها من رقعة السياسة الاوربية وذلك لاختلاف مصالح البلادين ليتوانيا وبولونيا واختلاف لسانيهما فكانت مجالس النواب في الولايات متباينة

المقاصد تعاكس الملك في اقل الامور حتى في عزل الموظفين الذين كانوا يعينون بلا عزل مدة حياتهم واقل صاحب رأي في الانتخاب يوقف عمل الاكثرية ويفسد عليها امرها حتى انقلبت الحال بعد ان كتب النصر لبولونيا على الهوسيين وفرسان حملة السيوف ان تبقى بلا حكومة ولا جيش ماخلا ايام أسرة جاجلون

قد بدأ انحطاط بولونيا على عهد سيجسموند فازا سنة ١٦١٨ فاصبحت المملكة بدون مالية ولا بيت ملك وطني بل كان ينتقل الملك من فرنسوي يعينه مجلس النواب الى مجري هذا وليس للبلاد حدود طبيعية تحميها من هجمات المهاجمين

ثم عادت الى البلاد بعض حياتها على عهد يوحنا سوبيسكي (١٦٧٤ — ١٦٩٥) فاصبح لها بعض مجد بجيش لها نظمته فبالجيش البولوني أنقذت «فينا» من ايدي العثمانيين الذين حاصروها ولكن لم تعد نجدة البولونيين للنمساويين بشيء من الفائدة عليهم ولا على حكومتهم . وخلف المنتخب فريدريك اغطس في ساكس ملكها سوبيسكي فاستند الى امارته سكسونيا فاستقام له امر بولونيا ثم خلع وتداخلت روسيا في امره ثم نشأ خصام بين بيوت الملك في بولونيا يدعي كل منهم حق التملك على البلاد وفي سنة ١٧٦٤ قضت ارادة كاترينا الثانية صاحبة روسيا بتأييد ستانيسلاس بونيانوفسكي على عرش السلطنة البولونية وفي وسط ذلك الاضطراب كثرت الانقسامات الداخلية وجاءت الفتن الدينية التي كانت هادئة هناك فانقسمت الى المنافسات السياسية وذلك بما تخلل الامر من عبث الاصابع الاجنبية فاستصرخ الارواميون كاترينا الثانية [1] امبراطورة روسيا واستنجد البروتستانت ماري تريز ملكة النمسا وفريدريك الثاني . وكان لروسيا نفوذ في مجلس نواب سنة ١٧٦٦ فسعت الى اطلاق حرية المذهب والغت حرية الانتخاب فاستقام امر الحكومة وكان الاضطراب على اتمه عندما ألف سنة ١٧٦٨ اتحاد بار يضمن احترام الاستقلال الوطني ولكن كان قد سبق السيف العذل فتقرر بين روسيا والنمسا سنة ١٧٧٢ تقسيم بولونيا ولم يقاوم في ذلك من الدول سوى الدولة العلية فتقاسمت النمسا والمانيا وروسيا تلك المملكة العظمى وفي سنة ١٧٩٥ قسمت البلاد نهائيا فوقعت العاصمة اي فارسوفيا من حصة روسيا وكراكوفيا وفيها كلية بولونيا العظمى من حظ النمسا ونالت بروسيا بقية المملكة ثم نظم جزء منها مملكة جديدة ولكنها انتقضت وثارت سنة ١٨٣٠ فدخل الروس الى فارسوفيا بعد ان ابلى البولونيون بلاء حسنا فانحلت مملكة فارسوفيا

(١) معجم لاروس الجديد Nouveau Larousse illustré

واقفلت كلية فيلنا البولونية وصادرت الاموال ونفت الرجال فاصبحت بولونيا ولاية روسية وقام البولونيون سنة ١٨٦٣ ثائرة وحملهم على الانتقاض ما رأوه من اشتغال روسيا في حرب الشرق فألف البولونيون منهم عسكراً لايبقي ولايذر وبالنظر لقلة عدده تمكنت روسيا من قمع جماح الفتنة بعد سنة من نشوبها وما فتئ منذ ذاك العهد حال بولونيا في الولايات الروسية آيلا الى نزع لغتها وابدالها باللغة الروسية وتدريب اهلها على المناحي الروسية وكذلك حال ولايات بروسيا آخذ بالصبغة الالمانية الجرمانية

هذا اجمال من تاريخ انقسام مملكة بولونيا اما حالتها الادبية والعمرانية فان لغتها من فروع اللغات السلافية الغربية وقريبة جداً من اللغة الكاسوبية واللغة البولابية . وفي بولونيا عدة لهجات وقد نشأ من كلية كراكوفيا التي انشأها كازمير الاكبر عدة رجال في الفلسفة والعلم منهم كوبرنيك الفلكي ونجحت اللغة البولونية على عهد ملوكها من أسرة جاجلون وذلك بفضل دعاة المذهب البرتستاني الذين اختاروا نشر تعاليمهم بلغة الشعب وعلى عهد يوحنا كوشانوفسكي سلم ذوق اللغة وتألفت على القواعد العلمية المألوفة لليونان والرومان ودام ذلك الى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وهما قرنا الانحطاط لان القوم شغلوا بالفتن الداخلية فلم يعد احد ينظر في الادب وداهمت اللغة مفردات من اللغات الاجنبية .

وقد نشأ للآداب البولونية شعراء وكتاب كبار ومؤلفون ووعاظ واثريون ومؤرخون وجغرافيون وقصصيون ودخل الشعر البولوني على عهد ثورة سنة ١٨٣٠ في طور جديد واثرت في عقول الناهضين من شبانهم احوال الفتن وانطلقت السنهم بالشعر الممزوج بعواطف النفوس المتألمة ودامت طبقة الشعر في ارتقاء الى اواخر القرن التاسع عشر بما نشأ لهم من الشعراء بل والشاعرات المجيدات الذين حركوا كوامن النفوس وهيأوها لمطلب الكمال والاستقلال وساعد القصصيون خاصة بما نشروه من الاساطير والروايات على ترقية اللغة البولونية وادخال حياة جديدة فيها في العهد الاخير دع عنك من خرج من هذه الامة من الفلاسفة والمؤرخين

وان ما بقي من الآثار القليلة والعاديات في تلك البلاد ليدل دلالة واضحة على ان قدماء الصقالبة كانوا يحبون الصناعات والفنون وكذلك كانت الحال في القرون الوسطى في بولونيا فان ملوكها حموا حمى الصنائع النفيسة فكانوا يأتون من ايطاليا بالبنائين والنقاشين والمصورين حتى جاراهم البولونيون ونافسوهم في هذه الاعمال بعد .

ولكن الفتن التي استطار شرارها في القرنين الاخيرين سلب من نفوس البولونيين قرارها فهاموا على وجوههم بعد فقد استقلالهم في طول اوربا واميركا وعرضهما وكثر منهم المهاجرون ولاسيما الى اميركا الشمالية حتى قيل انهم يلغوا نحو مليوني بولوني يحافظون الى اليوم على لغتهم وآدابهم وعاداتهم القومية

وللبولونيين غرام فائق في احتفاظهم بلغتهم وتناغيهم بتاريخهم فتراهم كلما طالت المطال على تمزق ملكهم يحنون لاسترجاعه ونقوى عزائمهم على المطالبة به ولكن اوربا او السامة من اهلها قد قدت قلوبهم من حجر فلا تسمع لباك ولا ترحم كل شاك . على ان البولونيين لم يعتمدوا بعد التجارب الكثيرة الا على انفسهم فكانوا ومازالوا يستعدون في بلادهم وخارجها للتربية الحربية حتى لا تزول منهم ملكة الكر والفر وقد انشأوا لغرض الاستقلال جمعيات بثوا دعاتها في بلادهم وفي اوربا واميركا يجمعون المال الى ايام الشدة وهذا المال يحفظونه في الغالب في فروع جمعياتهم في سويسرا وقد صرفوها كلها في الفتن الاخيرة التي ثارت في بولونيا الروسية عقيب حرب روسيا مع اليابان فكانت تأتينا اخبار فارسوفيا بفظائع البولونيين وشدة حكومة روسيا في قطع دابر الفتنة . وفي سويسرا ايضاً حفظ البولونيون تاج آخر ملوكهم وصولجانه ونموذجاً من البسطهم جعلوها في متحف خاص

ولما انتشرت الحرية بعض الشيء في روسيا تنفس خناق البولونيين وقاموا يعيدون امجاد آدابهم بمدارسهم ولم تزل روسيا مأربا من نزع لغتهم وتلقينهم لغتها بالقوة بل عادت اللغة البولونية اكثر انتشاراً مما كانت قبل انقسام بلادهم ومن الغريب ان النشئة الذي اصاب اهلها والسعي الحثيث في معاملة مدارسها بالشدة في المانيا وروسيا لم تسفر الا عن اندماج كثير من اليهود والجرمانيين في الجنسية البولونية لان البولونيين من اقدر الامم على جلب غيرهم اليهم كأن من خواص شعبهم ان يأخذ ولا يعطي

كانت انما ومازالت ارفق الدول الثلاث الكبرى التي تقاسمت بدنها بولونيا بهذه الامة ولغتها وآدابها وعاداتها ولذلك كان اخلاص البولونيين لها اكثر من اخلاصهم للالمان والروس لانها ساوتهم بسائر عناصرها فلم يستقلوا ظلها ولا تبرموا بادارتها .

ولكثرة اندماج الالمانيين والاسرائيليين بالبولونيين من حيث يشعرون ولا يشعرون زادت نفوس فارسوفيا زيادة هائلة حتى بلغت الآن ثمانمائة الف وكانت اقل من خمسين الفاً ايام التقسيم وعدت من عواصم بلاد اوربا وبالنظر لخصب البلاد وعراقتها في

الصناعات والتجارات ونشاط اهلها اكثر من سائر العناصر السلافية بلغت مداخيل المصنوعات البولونية ٤٢٠ مليون روبل وكانت اقل من ثلاثين وبلغت قيمة الثروة العامة في بولونيا الالمانية نحو الف وثلاثمائة مليون مارك وكانت نحو اربعمائة مليون

وهكذا تجد تجاراتها واسعة باتساع غاباتها ومناجمها وخصب تربتها واقتدار اهلها على الصناعة والتقليد حتى حاكوا اعرق الامم الغربية في الحضارة ويكفي ان كوري مخترع الراديوم هو وعقيلته من اهل بولونيا وان في اهل اوربا كثيرين ممن نعرفهم الآن فرنسويين اوالمانيين او نمسويين او انكليزيين وهم في الحقيقة بولونيون لغة ومنشأ .

وبعد فيجدر وقد اتصل بنا نفس الكلام في هذا البحث الى هذا الحد ان نلم بطرف من تاريخ هذه الامة وعلاقتها بالمسلمين ولاسيما بدولة آل عثمان فقد بدأت الصلات المهمة بين بولونيا والامم الاسلامية (١) على عهد لاديسلاس جاجلون والسلطان مراد العثماني وحاكم بلاد المجر على ذلك العهد يوحنا هونياد وهو تابع لبولونيا وكانت تحدث مشاكل على الدوام بين جيشه وجيش السلطان وبعد حروب وفتن كتب فيها النصر تارة للعثمانيين واخرى للمجريين سئمت نفوس الطرفين القتال فطلب السلطان مراد التوسط بالصلح الى صاحب بولونيا فوقع على صكه في ١٤ ربيع الآخر سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤) لمدة عشر سنين على ان يعيد السلطان بلاد الصرب الى ملكها وان تضم بلاد الفلاخ الى المجر ويفتدي السلطان صهره محمد جلبي الذي أسر في وقعة كونوبيرا بسبعين الف دوكا (٨٠٥٠٠٠ فرنك)

واذ صادف ان السلطان مراد تنازل عن عرش الملك لابنه محمد طمعت اوربا في السلطنة ورأت ان الفرصة مناسبة للنيل منها وعلى عرشها فتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فطلب الى صاحب بولونيا ان يشارك الدول في تحالفهن على العثمانية فابى للعهد الذي عقده قبل مع سلطان العثمانيين فارسل اليه البابا اوجين الرابع يصرح بانه لاخشية في بعض الاحوال من الحنث بالايمان ومثل له بنفسه اذ انه جهز ثمانين سفينة على نفقته وسمى نفسه رئيس العصبة فاضطر صاحب بولونيا ان يسير على الخطة التي رسمها

(١) كتاب بولونيا والاسلام لصديقنا سيف الدين افندي كاشيوت البولوني
Chadée Gasztowtto. La Pologne et l'Islam. Paris Société Française d'Imprimerie et de Librairie 15 Rue de Cluny, 1907

امام الاحبار فانفذ بعوثه الى اقليم تراسيا واشتبك القتال بين المجريين والبولونيين والفلاخيين من جهة والعثمانيين من اخرى ونزل السلطان مراد بنفسه الى ساحة الوغى بدل ابنه الذي خلفه فقتل احد شيوخ العسكر العثماني واسمه خوجه خير ملك بولونيا فدب الفشل في الجيش المتحزب كله وذلك في رجب سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤)

قال المؤرخ ليونارد شودزوكو : « قال السلطان مراد بينما هو يطوف ساحة الوغى مع امين سره ازيب بك لما رأى صرعى الحرب من اعدائه : اليس من الغريب ان يكون كل هذا الجيش مؤلفاً من شبان وليس فيه شيخ واحد فاجابه ازيب بك : لو كان فيه شيخ واحد لما القى بنفسه في مثل هذه الورطة المجنونة » وقد فقد جيوش المجار بين في تلك الوقعة اشياء ثمينة ومنها سجلات ملك بولونيا فقدت مع مافقد عند مصرعه وهي خسارة كبرى .

وفي سنة ١٤٤٧ كان التاتار في بلاد القريم في حروب دائمة فاجمع رأيهم عَلَى ان يحكموا كازمير جاجلون ملك بولونيا ودوق ليتوانيا فيما شجر بينهم فنزل بعض المنكوبين من التاتار في بلاد ليتوانيا عَلَى الرحب والسعة واعطاهم صاحب بولونيا اراضي يتوفرون عَلَى زراعتها واخلصوا له ودافعوا في مواقف القتال عن حوزة بلاده واطلق لهم حريتهم الدينية حتى استمال بذلك قلوبهم وجاء الملك لاديسلاس الرابع وابد امتيازاتهم فانشأوا لهم جوامع ومنارات وبعد ان كانوا بادية رحالة اصبحوا مزارعين ساكنين وادعين وفي سنة ١٤٩٤ جمع بوحنا البر ملك بولونيا بعض امراء النصرانية في جواره وتحالفوا عَلَى قتال العثمانيين فساق السلطان بايزيد جيشاً مؤلفاً من اربعين الف جندي اجتازوا نهر الطونة وانضموا الى الفلاخيين وهجموا سنة ١٨٩٤ عَلَى بلاد بولونيا وكان صدر الامر السلطاني الى والي سيلستريا ان يهاجم البولونيين ففتح العثمانيون البلاد عَلَى ايسر وجه لانبساط سهولها واستولوا عَلَى بعض مواقعها في وقعتين ظفروا فيهما ولكن داهم الجيش العثماني برد قارس وثلج واعاصير فهلك منه اربعون الفاً ولم يسلم سوى عشرة آلاف جندي عادوا ادراجهم يجتازون نهر الطونة

واذ تحالف ملك بولونيا مع ملك المجر وملك ليتوانيا اضطر السلطان بايزيد ان يبعث الى كراكوفيا سفراء لعقد الصلح . وفي سنة ١٥٢١ ارسل السلطان سليمان الاول الى بلاد المجر سفيراً لم يجبه المجريون الا بخنق سفيره فساق السلطان عَلَى المجر قوة من جيشه غلب بها المجر وان امدهم صاحب بولونيا بستة آلاف جندي لكن قوة الدولة العلية كانت

اعظم وعاد السلطان سليمان في ربيع سنة ١٥٢٦ ايضاً في قوة من رجاله على بلاد المجر فامد صاحبها ملك بولونيا ولكن قوة الدولة العثمانية تغلبت فكتب النصر لاعلامها وهلك في المعركة لويز الثاني ملك المجر في خمسة وعشرين الفاً من رجاله

ثم سار سليمان الى جهات المجر وارجع البلاد الى ملكها الشرعي وانقلبت الحال فتحالف سلطان العثمانيين مع ملكي بولونيا وفرنسا وتزوج السلطان سليمان بروكسلان من سبايا البولونيات فشغفته حباً واتخذها سلطانة شرعية وسماها خرّماً وكانت على غاية من الجمال والادب والذكاء ولكنها صرفت ذكاءها الى الخبث فكانت القاضية على السلطان ان يعامل ابنه معاملة بربرية شهدت لها تواريخ العثمانيين فقتله بدسائسها

وفي سنة ١٥٧٢ اعانت بولونيا الدولة العلية عند مانداعات هذه لاقرار الامن في نصابه في اقليم مولادافيا وسعت الدولة العلية كل السعي ان يبقى التحالف مستحكماً بينها وبين فرنسا وبولونيا لدفع عوادي النمسا ولكن حكم بولونيا ملوك لم يعدوا لهذا الامر عدته . وفي سنة ١٥٧٦ تحالف السلطان مراد الثالث مع اتين باتوري امير ترانسلفانيا وملك بولونيا وجددت هذه المعاهدة سنة ١٦١٩

ولكن امير ترانسلفانيا واسمه بثلم كابور كان يطمع في الاستيلاء على المجر فحرض العثمانيين والتاتار على البولونيين فوقعت بين صاحبي بولونيا والعثمانية وقعة اخرى سنة ١٦٢٠ كسر فيها البولونيون وفي سنة ١٦٢١ قام السلطان عثمان الثاني في مئة الف من جنده قاصداً الى بولونيا فدحر جيشه ولما رأى انه فقد منه ستون الفاً اضطر يوم ٢٣ ذي القعدة ١٠٣٠ الى عقد صلح صدق عليه في الاستانة سنة ١٦٢٣ سفير بولونيا

ثم ان روسيا اهاجت خاطر السلطان مراد الرابع على بولونيا ولكن حكمة صاحب بولونيا قضت بحقن الدماء وان كان ازمع السلطان العثماني ان يملأ بجيوشه السهل والوعر في بولونيا لكن السفير البولوني تلطف في السفارة واغضى عما سمع من السلطان من ارادة هذا ان تدين بولونيا بالاسلام وتدك حصونها وتؤدي اليه الجزية نعقدت بين الدولة العثمانية وبولونيا معاهدة سنة ١٦٣٤ كانت نافعة للبولونيين . وفي تلك السنة بدأت روسيا بحجة الدفاع عن مسيحيي الشرق تدس الدسائس .

خدم تالي بك وهو بولوني واسمه الاصلي بوبوفسكي الباب العالي اعظم خدمة في

القرن السابع عشر كما خدم البولونيين والليتوانيين فقد عينته الدولة مترجماً في الباب العالي وكان يحسن سبع عشرة لغة

وفي سنة ١٦٧٢ زادت الاخطار التي كانت تهدد بولونيا منذ سنة ١٦٥٢ فكان قيصر الروس يدس الدسائس بين القوزاق والتاتار والاتراك ليحملهم عَلَى النيل من البولونيين حتى كان من السلطان محمد الرابع ان اعلن عليهم الحرب في نيسان سنة ١٦٧٢ فاستولى عَلَى كامينيك بودولسكي وليوبول وكل اهم المواقع الحصينة من اقليم روتينيا غاليسيا . فطلب صاحب بولونيا الصلح من السلطان وتخلت بولونيا للباب العالي عن بودولي واوكرين وان تدفع اليه جزية سنوية قدرها ٢٢٠ الف دوكا الا ان الامة البولونية لم ترض ان تدفع مثل هذه الجزية لما رأت فيها من العار عليها وآثرت ان تعود الى الحرب تموت في ساحاتها من ان تقبل بشروط ارتضاها ملك لها مأفون الرأي ضعيف الحول والطول فعاد السلطان محمد الرابع الى القتال وهاجم سوبيسكي جيوش العثمانيين في شوسيم عَلَى نهر دنيستر واستولى عَلَى المدينة ورجع العثمانيون عَلَى اعقابهم الى بابا طاغ حيث كان السلطان مخيماً فصادف ان مات في ذاك الحين ملك بولونيا فانصرف سوبيسكي الى فارسوفيا للاشتراك في انتخاب ملك لبولونيا فقدر انتخابه ملكاً لها مكافأة له على الخدمة التي قدمها لامته وعاد الى قتال العثمانيين فهزمهم في بودوليا واوكرنيا وفي ١٩ شعبان ١٠٨٧ هـ عقد الصلح عَلَى ان لاتدفع بولونيا شيئاً ويبقى لها قسم من اقليم بودوليا ويحتفظ العثمانيون بكامينيك وان تكون مفاتيح الاماكن المقدسة بيد بولونيا لانها دولة تسامح لاتتعصب لكاثوليكي ولا لرومي ولا لبرتستانتي ولا لغيرهم من اهل الاديان وذلك عَلَى الرغم من ارادة روسيا فصفت العلائق بين الدولة العثمانية وحكومة بولونيا

ولما ساقت الدولة العثمانية عَلَى فينا مائة وخمسين الف رجل وكادت تستولي عليها انجد صاحب بولونيا صاحب النمسا فارتد العثمانيون عن عاصمة النمسا ثم اقتتل الجيش العثماني مع الجيش النمساوي سنة ١٦٩١ في سالانكم على نهر الطونة فغلب العثمانيون اولا ثم انهزموا فاقدين ثلاثين الفاً من رجالهم وفي سنة ١٦٩٤ رد البولونيون العثمانيين من كامينيك بردولسكي

ونال العثمانيون عَلَى عهد مصطفى الثاني عدة نصرات عَلَى جمهورية البندقة واستولوا عَلَى الهرسك وامدوها بالذخائر وجاز السلطان في جيشه الطونة ماراً بآق بنار

(كارلسبرج) وتمسوار ولاغوس وقائل التمساويين فقتل زعيمهم وقتل العثمانيون من الروس في اوزوف ثلاثين القائم فشل العثمانيون في غرة صفر ١١٠٨ في تسيا على يد التماويين وكان العثمانيون يريدون انقاذ بلاد المجر من التماويين

وفي خلال ذلك اجتمع ملوك اوربا للمرة الاولى لحل الاختلافات التي كانت بين الدولة العلية العثمانية وبين سبع دول من دول اوربا وبموجب ماتم من هذا الاجتماع ارجعت الدولة العلية الى بولونيا كاميتيك وبودوليا واوكرونيا وتخلت الاولى للثانية عن الخراج الذي كانت تتقاضاه منها ومنذ ذاك العهد تصافت بولونيا والعثمانية لانهما ايقنتا بدسائس حكومات اوربا التي يقصد بهما اضعاف الفريقين فكانت اوربا تترك روسيا تعتدي على العثمانية وبولونيا والسويد بدون ان تطالبها باحكام العدل والانصاف ومراعاة حق الجوار نعم كانت تغضي عن روسيا لتنال قسطها من الارض العثمانية والبولونية والسويدية

تشبت حرب هائلة على عهد السلطان احمد الثالث بين السويد وروسيا وبولونيا وسكسونيا دامت منذ سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧٠٩ فانهزم السويديون والبولونيون والجأوا الى الارض العثمانية فنزلوا في بندر من اقليم بسرابيا فاكرمت العثمانية مثواهم الا ان روسيا لحقت بالمنهزمين الى الارض العثمانية وفي خلال ذلك دخل الاسطول الروسي الى الاستانة فاغتاظ السلطان واعلن الحرب عاهداً بقيادتها العامة الى الصدر محمد باشا البلطجي وحمي وطيس القتال بين عساكر الدولة بعضدها اناس من البولونيين وبين الروس في سهول هوسكب فاركب الله القائد العثماني اكتاف العدو ولكن القائد العثماني عاد فارتشي من كاترينا الاولى ملكة روسيا وعقد بين دولته والامبراطورية الروسية معاهدة اجحفت بحقوق امته فعزله السلطان ونفاه الى جزيرة لمنوس وقتل خنقاً من ارتشوا معه من رجال الدولة اذ ذاك مثل وزير الداخلية ورئيس الكتاب وغيرهما واعلن السلطان ان هذه المعاهدة بين الدولة العلية وروسيا لاغية وعاد الى اعلان الحرب على العدو سنة ١٧١١ بقيادة يوسف باشا الصدر الاعظم فاوقفت الحرب بسعي الروس في الاستانة وعقدت معاهدة جديدة بين المتحاربين فوقع رجال روسيا على عهد الصلح ليشغلوا الدولة ويغنموا الوقت فلما ابلغوا مضمون المعاهدة للقيصر ابى الاقرار عليها فاعلن السلطان الحرب في شوال سنة ١١٢٤ ولم يظفر الروس في هذه الوقعة بالعثمانيين الا لان وزارتي اندرنا والهاي كانتا تعضدانه على العثمانية وبولونيا والسويد وبمسعاهما اوقفت

الدولة العلية الحروب ووقعت في ادرنة يوم ١٣ حزيران ١٧١٣ عَلَى معاهدة صلح الى مدة خمس وعشرين سنة ولم تراع فيها مصلحة الدولة العلية وعادت روسيا فعقدت معاهدة اخرى مع الدولة العلية سنة ١٧٢٠ من مقتضاها انه يحق لها التدخل في شؤون بولونيا .

توفي السلطان احمد الثالث سنة ١١٤٩ هـ وخلفه السلطان محمود الاول فحارب الفرس واضطر الى التخلي عن تبريز وفي سنة ١١٤٩ وقع الفرس والعثمانيون عَلَى هدنة لتتفرغ الدولة العثمانية لمقاومة اعتداء روسيا والنمسا . وازمعت روسيا ان تجتاز بجيوشها بلاد بولونيا لتداهم الارض العثمانية فاغتاظ لذلك السلطان محمود لانه مخالف للعهد الموقع عليها ولم يسمع الروس لاحتجاج العثمانية فحاصروا مدينة ازوف واضطرت الحكومة العثمانية ان تسوق جيشاً في ٦ صفر ١١٤٩ هـ (١٧٣٦) وكانت قد سقطت المدينة قبل ان ينجدها الجيش العثماني واستولت روسيا عَلَى اوتشاكوف وكنبورن وعَلَى كوزلوف وبغجه سراي وآق مسجد من بلاد القريم واتى الروس من الفظائع في هذه الوقائع ماسطره لهم التاريخ باحرف من نار حتى كتب المسيو كاستلنو في تاريخه الذي قدمه الى القيصر اسكندر الاول بشأن هذه الوقائع مانعريه : ان الحملة لم تول روسيا شرفاً فان بلاد القريم أحرقت ودمرت وربما كان مثل هذا العمل يغتفر عَلَى عهد البربر لما فطروا عليه من الجهل ولكن احراق المدن في القرن الثامن عشر وتخريب اهم المصانع والآثار وتدمير المعابد وابادة المدارس العامة وادخال الظلام عَلَى العقول باحراق خزائن كتب الامة التي تريد الانتفاع بها في انارة افكارها والقاء الشيوخ والنساء والاولاد طعمة للنيران لايقصد منه الحرب بل اهلاك شعب عن بكرة ابيه »

وتحالفت روسيا والنمسا محالفة دفاعية وهجومية واحتالت الثانية لعقد مؤتمر مؤلف من مندوبيها ومندوبي روسيا والدولة العثمانية فرأى الروس بموجب المعاهدة المبرمة ان تلغى جميع المحالفات التي كانت أبرمت بين الدولة العلية وامبراطورية روسيا وان تسلم الى هذه بلاد القريم وكوبان وجميع البلاد التي نزلها التاتار ويعترف لمولدافيا وفلاخيا بانهما امارتان مستقلتان تحت رعاية روسيا ويعترف بان ملوك الروس هم قياصرة وان تدخل السفن الروسية حرة الى البحر الابيض من خليجي البوسفور والدردنيل فلم ترض الدولة بهذه الشروط المجحفة وعادت النمسا فاستجمعت قواها وحمي الوطيس في بلاد

البلقان وهزم العثمانيون العدو حتى اضطر الروس الى ان يحرقوا بانفسهم اسطولهم في بحر ازوف لئلا يسقط في ايدي العثمانيين

وفي سنة ١٧٣٩ عقد الصلح بوساطة فرنسا بين الدولة العثمانية من جهة ودولتي النمسا وروسيا من اخرى واعادت النمسا بلغراد وسابا كرا ورسونا وغيرها واصبح نهر الطونة والساف تخوماً بينها وبين الدولة العثمانية وقضت المعاهدة الاخيرة على روسيا ان تهدم حصون ازوف وتاكانروج وتسحب سفنها من بحر ازوف والبحر الاسود ولا تقيم الا على السفن الاجنبية وان تظل القريم مستقلة وتنال لقاء ذلك حرية المذهب الارثوذكسي في المملكة العثمانية وان تقيم لها سفيراً دائماً في الاستانة ووعد السلطان ان يمنح لقب امبراطورة للقيصرة حنة ايفانوفنا . ولم يجر في هذه المخالفة ذكر لبولونيا . وكان من نتائج هذه المعاهدة ان عرف الارثوذكس على عهد السلطان عثمان الثالث سنة ١٧٥٧ بان روسيا تعضدهم في البلاد العثمانية فكان اول عمل لهم ان ينهبوا دير الكاثوليك في يافا ويحجموا على الفرنسيسكانيين وغيرهم من البابويين حتى في كنيسة القبر المقدس وكسروا المصابيح والآثار وغيرها وجردوا الرهبان مما كان لهم

ولما ابى اغسطس الثالث ملك بولونيا ان يدخل مع اعداء الدولة العلية في محالفة ضدها اعترف به الباب العالي ملكاً وارسل من قبله الى فارسوفيا عاصمة البولونيين مندوباً سنة ١٧٣٧ وذلك على عهد السلطان عثمان الثالث وكذلك ابلغ السلطان مصطفى الثالث بعد ثلاث سنين صاحب بولونيا بجلوسه على العرش وبدأت العلائق الحسنة بين الدولة العلية وحكومة بولونيا حتى كانت الدولة تصدر اوامرها المرة بعد المرة الى عمالها في شوسيم وبندر والى خان القريم ان لا يكدروا صفو الصلات بينهم وبين بولونيا واذا نشأ على القوم خلاف يحلونه بالحسنى

وادخلت روسيا في غضون ذلك جنداً لها الى ارض بولونيا فاعترض الباب العالي عليها فاجابته بانها تنوي اطفاء فتنة داخلية وان العهود تقضي بان لا تتداخل العثمانية في الشؤون البولونية ومع هذا امر الباب العالي فاضطرت بولونيا ان تحسم الخلاف الذي كان قد حدث بين الشعب بداعي انتخاب ملك جديد فاتحدت بولونيا على امر بينها تحت حماية الدولة العلية حتى ان السلطان مصطفى الثالث لما ذهب الى جامع ايوب ليتقلد سيف عثمان الاول على العادة قدم له الجند كأس مشروب على نحو ماجرت العادة فاجابهم انه يرجو في الربيع القادم ان يشربه معهم على اسوار بندر وضفاف دنيبر

ولقد كانت جل رغائب روسيا في ذاك العهد ان تقسم بلاد السويد والدولة العثمانية وبولونيا فكانت تسعى الى ذلك بكل حيلة وتحيد عن كل محالفة كما فعلت سنة ١٧٦٧ بالاتفاق سراً مع ملك بروسيا وادخلت جيوشها الى بولونيا فاغتاظت الدولة العلية لذلك اذ عدت هذه مقدمة الى جلب الدب الاكبر الى جوارها واعلن السلطان مصطفى الثالث الحرب على كاترينة الثانية سنة ١١٨٣ هـ .

وفي سنة ١٧٦٩ و١٧٧٠ حدثت بين الدولة العلية وروسيا وقائع كتب فيها الظفر للروس ولاسيما في الحرب البحرية التي هاجم فيها الاسطول الرومي الاسطول العثماني في نافارين واحرق السفن العثمانية بقيادة ربان انكليزي واحرقت مدينة تشسما بالقرب من ازمير وسمع صوت القذائف الى بعد خمسين فرسخاً والى ازمير على بعد ستة فراسخ ودام الحريق من الساعة الواحدة بعد نصف الليل الى الساعة السادسة صباحاً وكان ذلك في ١٣ ربيع الاول سنة ١١٨٣ هـ فخسر العثمانيون خمس عشرة سفينة في كل منها ٧٤ الى ١٠٠ مدفع وتسع سفن في كل واحدة منها من ١٥ الى ٣٠ وعدة مراكب واستاق الروس سفينة فيها ستون مدفعاً وخمسة زوارق ودامت الحرب بين الدولتين سنة ١٧٧١ و ١٧٧٢ واستولى الروس على القريم واجبوا عقد الصلح الا ان السلطان نشر في المحرم سنة ١١٨٧ (١٧٧٣) منشوراً يعلن فيه الحرب على روسيا فظفر الجيش العثماني في عدة وقائع في سنتي ١٧٧٣ و ١٧٧٤ وردوا الروس عن تجاوز نهر الطونة والى ماوراء سيلسترا وبينا النصر كان حليف اعلامهم توفي السلطان مصطفى الثالث وكان قبيل وفاته اخذ منشوراً من حكومات بروسيا والنمسا وروسيا باتفاقهن على تقسيم بولونيا تقسيماً اولياً وذلك في سنة ١٧٧٢

وخلف عبد الحميد الاول اخاه مصطفى الثالث وفي ايامه اتفقت روسيا والنمسا على حرب الدولة العثمانية فاستولتا على اوتشاكوف سنة ١٧٨٨ وفي خلال ذلك كانت المانيا تحاصر بلغراد لخزن السلطان لما نال ملكه حتى تمات قهراً سنة ١٧٨٩ وظل خلفه سليم الثالث يحارب تينك الدولتين ولكن ردت الجيوش العثمانية على اعقابها واستولى الظافرون على بندر وغيرها واستولى النمساويون على بلغراد وسائر مدن الطونة وفي خلال ذلك احبت انكلترا وبروسيا والنمسا ان تحمل روسيا على توقيف الحرب على العثمانيين لاشتغالهن بثورة فرنسا الاولى ولكن كاترينا صاحبة روسيا رأت الفرصة مناسبة لدوام الحرب واتمام رغائبها بشأن العثمانية وبولونيا الا ان جيوش العثمانيين ظفروا في عدة مواقع

بالجيش الروسي وذلك في البحر الاسود بالقرب من بكي قوله ثم بالقرب من آق بر (سياستبول) وانهزم امير البحر الروسي في ٨ ايلول سنة ١٧٩٠ وتبدد اسطوله وبعد خمس وستين سنة في ٨ ايلول اي سنة ١٨٥٥ سقطت سياستبول ايضاً وفي خلال ذلك حدث لروسيا ماشغلها ببولونيا فعقدت الصلح مع الدولة العلية وفي سنة ١٧٩٣ قسمت بولونيا تقسيماً ثانياً وفي سنة ١٧٩٥ قسمت تقسيماً ثالثاً بين الدول الثلاث ولم تبق دولة من الدول بينت شفة في الاعتراض على هذا العمل الا الدولة العلية التي اعترضت على نزع استقلال بولونيا بالقول والفعل ولكن قدر فكان واستولت روسيا وبروسيا والنمسا على بلاد البولونيين بعد مذابح يعجز فيها الارواح يوم المجان.

ولقد عزمت حكومات اوربا سنة ١٨١٥ ان تقيم في فينا مؤتمراً دولياً لتقرير حال السياسة وسعت روسيا ان لا يقبل فيه مندوب من الدولة العلية فنجحت في مسعاها وكان من اثر ذلك ان اخذت روسيا تحرض اليونان والصرب والبلغار من رعايا الدولة العلية على نزع ايديهم من حكومتهم فقضي في دسائسها الوف من هذه العناصر ومن المسلمين ايضاً

وحدثت بين سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤٨ عدة فتن داخلية في البلاد العثمانية وكذلك في بلاد الفلاخ والمجر وتدخل الباب العالي في شؤون ولايات الطونة واهم ذلك فتنة المجر ولو جرت الدولة العلية على تحالفها مع بولونيا والمجر وعنصرها من العناصر التي تحب العثمانيين كثيراً لنجت هي وهم من غوائل سياسية كثيرة

قلنا ان الدولة العلية ناهضت لحفظ استقلال بولونيا بالقول والفعل وذلك على عهد مصطفى الثالث الذي اعلن الحرب على كاترينا الثانية لمجرد الدفاع عن بولونيا فبعثت الدولة الصدر محمد امين باشا الى نحوم نهري الطونة ودنيستر سنة ١٧٦٨ لمحاولة كاترينا ان تدخل اليه السم فاكتشفت المكيدة وشنق الاطباء ولكن عاد الصدر فتناول رشوة من روسيا هو وامير مولدافيا وترجمان الباب العالي فلما اكتشف السلطان امرهم امر باعدامهم في آب سنة ١٧٦٩ وارسل الباب العالي قائداً آخر ودام القتال بين البولونيين والعثمانيين من جهة وبين الروس من جهة أخرى الى سنة ١٧٧٠ وانتهى على مامر بك آنفاً بتدمير الاسطول العثماني في تلك الوقعة المشؤومة

فالمسلمون والبولونيون اصدقاء منذ عرفوا ايكيد لم اعداؤهم حتى ان بولونيا لم ترسل بجيش منها مع جيوش الصليبيين الى الشرق لما قام هؤلاء باستخلاص البيت المقدس

من ايدي المسلمين . ويكفي في عناية الدولة بالبولونيين وعنايتها بالمجريين ايضاً انها فتحت صدر بلادها لقبول المنكوبين منهم والعاملين على انهاض بلادهم واسترجاع سلطانهم فازدلتهم في ارضها على الرحب والسعة ووسدت الى بعضهم المناصب واستعانت بهم على ثقوبة كلتيها الجندية والسياسية حتى ان الدولة لما ارسلت الى مؤتمر بكرش الدولي مندوباً من قبلها في اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر اعلنت بان دول اوربا اذا رضيت بان تعيد مملكة بولونيا الى حالتها بعدل الباب العالي علناً عن امتلاك ولايات الطونة ولذلك رأى عقلاء من البولونيين ان تؤلف كتائب بولونية سنة ١٨٥٤ تحت رعاية العثمانية فتألف عسكر الزواق وكان منهم كتائب الدراغون التي جاءت الى سورية ايام فتنة سنة ١٨٦٠ في جبل لبنان

وكان من كتائب البولونيين في حرب القريم ان ابلوا مع العثمانيين بلاء حسناً ولما انتهت الحرب اقطعتهم الدولة بعض قرى في ضواحي بروسة واسوا لهم بلدة في ضواحي الاستانة لانزال الى اليوم وقد دان بعض تواديهم بالاسلام مثل ميخائيل ساجوفسكي الذي سمي بعد تحمد صادق باشا وولوبورد زاكي الذي لقب بمحمد حلمي وغيرهما من رجال البولونيين الذين اخلصوا الخدمة للدولة العثمانية . وابن محمد صادق باشا المشار اليه هو مظفر باشا متصرف جبل لبنان السابق .

وهكذا كان الاتراك والبولونيون يتحابان كل طال المدى خصوصاً والعثمانيون يعلمون حسن معاملة البولونيين ايام استقلالهم للتتار المسلمين النازلين في بلادهم ليتوانيا منذ سنة ١٤١٠ وكيف كانوا يعتمدون عليهم في الدفاع ويؤلفون منهم كتائب تغني غناءها في رد هجمات المهاجمين على بلادهم وكانت لهم حريتهم المذهبية والشخصية حتى كانت تسمح لرجالهم ان يتزوجوا من النساء البولونيات لقلة النساء عند التتار وان يتبعن مذهب رجالهن وما قط تزوجت مسلمة من بولوني كما انه لم يتزوج تاتاري من يهودية

وكانت بلاد بولونيا قديماً الطريق التجاري لبلاد الشرق الى اوربا لان بولونيا كانت اول بلاد المسلمين ولذلك ترى العادات والاذواق واحدة في البولونيين واكثر العثمانيين وبين البلادين من الصلات التجارية شيء كثير ولا سيما بعد ان زادت مدنية البولونيين وما عددهم الذي بلغ كما قال مؤلف الكتاب الذي اعتمدنا عليه في تعريب هذه النبذة ثلاثين مليوناً وهم نازلون بحر البلطيق الى البحر الاسود ومن نهر اودر الى داو بنا الى دينبر .

ذهب استقلال بولونيا منذ نحو قرن ونصف ودعاة استقلالها مازالوا منبثين في البلاد لم يدخل اليأس على نفوسهم والاب يلقن ابناءه والام تلقن ولدها التناغي بالاستقلال ويعلمون ابناءهم تاريخ بلادهم وعظمتها وبطش الحكومات التي تقاسمتهم ولا سيما روسيا ويذكرون لهم مذاهبها واغاليطها فيهم فهل يوفق اولئك الدعاة الغيورون الى مانصدوا اليه ذات يوم يأتي ام يخضعون على الدهر لمن استصفوا ارضهم وديارهم .

ان انقضاء القرون في حياة الشعوب لاشأن له بقدر كر السنين في حياة الافراد وما المئة سنة بالشيء الكثير على امة تطلب التجديد وترع رمتها ممن يظلمها ولذلك يرجى الاستقلال لكل امة كان لها نفقدته كالمصريين والجزائريين والمندبين وغيرهم ممن استعمرت بلادهم وقرب الامم بالاستقلال البولونيون والليتوانيون .

القصيح العامي والعامي القصيح

من مبحث لنعوم افندي مكرزل صاحب جريدة الهدى اليومية في نيويورك

ليس في اللغة العربية معجم واحد يستحق ان يدعى نجمة الرائد بوفرة الشواهد وكثرة الفوائد وضبط الشوارد ولا في غير اللغة ما يدل على ازالة الابهام وكشف الغامض بايراد ابيات تحول الشعراء وعبارات بلغاء المتقنين على صحة الكلمة والعبارة كما نرى في ويستر في الانكليزية وليتره في الفرنسوية فترى اكثر الكتاب يتخرصون في مالا يعذرون عليه ويتوهمون ان البيان في الدخيل والحوشي والبلاغة في العقيم والوحشي وان كل من هرف عرف .

فاللغة في حاجة الى معجم تقام على كل حرف وكلمة منه شواهد شعرية ونثرية يسلم معها الذوق ويستقيم ويرد الكلام المدعو عامياً الى اصله الفصيح ويعدل عن التقعر الى السهل المقبول

قد تهلهل ثوب اللغة حتى كاد يسقط من تقطعه فترى كل ممن تجيف بيانه عجمة وجدل عن ادعاء ومكابرة يجحف الفصيح ويستلب البليغ ويحرك خشاشه غضباً على كل من

ملك من اللغة عنانا وضبط لها بيانا ويكون لايدري من اي الدهداء هو ولايعرف له في عالم الادب اصل او فصل ولكنه يتوهم ان كل كلمة يقرأها ولايفهم معناها تكون من « الحوشي والوحشي ! » . وان كل ماتداولته السنة العامة ساقط يجب الترفع عنه وتكون الكلمة التي لايفهمها من ابلغ ماجرت به اقلام المنشئين والشعراء الا اذا لم يطالع ليعلم ولا تحرى ليفهم ويكون بعض ماتداولته السنة العامة من بقايا افصح اللغات العربية التي اعتورها التصحيف والتحريف وقليل من البحث يرجعها الى اصلها ويقيم من اللسان منآده على ماوقع من نحو خمسين عاما اواليوم اذ توكف المجتهدون آثر بلغاء العربية الاقدمين وتنشطوا للبحث والتنقيب واقبلوا على التدقيق والتحقيق وقد ترجع مثابرتهم اللغة الى رونقها الاول بعد خمسين عاما تأتي .

وليس لنا حتى في مدارسنا الوطنية اثر « للوطنية » فترى ان كل مدرسة سورية قد اوجبت على تلاميذها التخاطب بلغة غريبة عنهم حتى عند اول دخولهم بابها فيتسرب العتوق وشيء من البله الى قلوب وعقول هؤلاء الاولاد المساكين ويكون القائمون على تهذيبهم وتدريبهم من خونة الوطنية ومجرمي الآداب اذ كيف يعقل ان طالباً لايفهم من الفرنساوية او الانكليزية اوالروسية اوالجرمنية كلمة يكلم رفيقه باحداهن قبل انقضاء الاعوام عليه وكيف يقبل السوريون مثل هذه « الشريعة المدرسية » الظالمة التي تكم فم التلميذ وتعوده الخيانة اضطراراً لقضاء حاجاته الضرورية وتنشئه على حب لغة غير لغته ووطن غير وطنه ولو ان المدارس السورية توجب التخاطب بلغة اجنبية في ساعة واحدة معينة للتلاميذ لكان ايجابها معذوراً وان لم يكن له مثيل في اي مدارس اوروبا واميركا وانما هو الاحتقار يركب الصغار ! والمدرسة التي لاتصان فيها اللغة الوطنية تكون عدوة الشعب ولو كان منشئوها من الصرحاء .

ان البلاء ليس في الادعاء وحده بل في اختزال كل منا برأيه والتصرع والتصاغر للاجنبي والتمرؤ الظاهر تكلفه والتفوق البادي تحيفه مع الوطني وريح التخاذل حتى في اللغة تنجف كل ذروة بافية في جرفها وتحتمل كل درة كنا نعرفها قبل عصفها والله في تدابيره شؤون .

وهناك آفة جديدة على اللغة من اهمال معاجمها المعروفة وعدم تنقيحها وتصحيحها وادخال الموضوعات الحديثة اليها ففي اي معجم نرى تفسيراً عصرياً للمجهر والندي والرعاد والمنطاد مثلا اوجمعاً لشتات ماجمع على صحته المحققون اوتوسعاً في الاشتقاق

والنحت والقلب والابدال والتركيب والادغام مما لاغنى عنه في لغة حية بل نرى ان كل معجم يطبع حديثاً يجرد من الكثير من اصوله بدعوى حفظ آداب الناشئة وصون اخلاقها . فليكن ذلك . ولكن بعد بذل شيء من العناية لزيادة الضروري للكبار كالتناص الضروري للصغار .

الفيلسوف اللغوي يجد في كل معجم حديث زيادة جديدة وشروحاً مفيدة الا في العربية الباقية كالرسوم الدوارس مع تعدد المدارس . وترى « المثقفين والمهذبين » ينشرون صفحات الحريري والبديع ومجمع البحرين وامثالها لاشراب التلاميذ روح المخادعة والمصانعة والجبانة والخيانة والحيلة والرذيلة على غير قصد منهم او بقصد استظهار الشوارد والاوابد ويطوون صفحات كل كتاب يكون افيد واعود وانفع وارفع لانهم لايزالون كالفلاحين الشرقيين محافظين على المحاريث القديمة !

ومن عيوب العربية ايراد جموع لامفرد لها وافعال لامصدر ولاماضي لاحدها فهل تقبل فلسفة اللغة شيئاً من هذا ؟ وهل يعقل ان واضعي اللغة بنوا كلاً من غير اجزاء ؟ انما لاتنسب هذا الخلل الا الى مدعي المحافظة على سلامة اللغة اذ يكونون يحافظون على قديم عقيم لايسلم به عقل سليم .

وفي اللغة عيوب كثيرة الصقها بها غير الراسخين ونظن ان أوان النهضة الادبية قد آن وانه يجب ان يعلن دستور اللغة كما اعلن دستور الحكومة

انا مورد الآن ماحضرني من العامي الفصيح للغاية التي بسطتها في التوطئة .

توآ — اسأل عجوزاً او شيخاً ان يدلك على بيت او طريق في لبنان فيقول لك « اذهب توآ » ويشير باصبعه والكلمة فصيحة من قولهم جآء توآ اي قاصداً لايعرجه شيء

بربص — يقال بربص الارض اذا ارسل فيها المآء لتجود او بقرها وسقاها سقياً رويا وهو المعنى الذي تستعمل العامة الكلمة له في بعض السواحل والقرى الغزيرة المياه اما في سائر لبنان فيفهمون بالبربصة رش المآء امام البيوت والحوانيت وليس في المعنى شذوذ

دعث — الدعث هو تدقيق الرجل التراب على وجه الارض بالقدم

ودعس — وقريب منه دعس الشيء اذا وطئه شديداً والغريب ان اكثر الصحافيين يعتبرون « دعس » عامية وان الكتاب لايستعملونها لزعمهم ان المعنى العامي غير تام

اما « دعث » فلا يذكرها احد منهم مع ان القرويين يستعملونها « للرص » ويقولون عن الارض المدوسة مدعوثة وعن الطوح التي تكنف : يجب دعسها او دعثها . فليتأمل القارئ

دعك — كلمة فصيحة ويقال دعك: الثوب اذا ألان خشنه الا ان متفرنجي اللغة لايرون في الكلمة فصاحة فيستعملون « أخلق » وهي لاتدل على شيء من الدعك بل على البذ والارثاث

دعر — يقول العرب : عود دعر نخر للردي الكثير الدخان ويفهمون بالدعارة (بتشديد الراء) سوء الخلق ويقولون دعر العود اذا دخن ولم يتقد وتقول العامة رجل دعر اذا كان متصلباً جافياً وهو من المجاز الذي لاغنى عنه الا ان من الناس من لايريد ان يمتد نظره الى ابعد من ارنبة انفه .

دغري — في محيط المحيط ان « الدغري تحريف الطوغري بالتركية ومعناه الصحيح والمستقيم » فلماذا لا يرجع الى الاشتقاق العربي فيكون معناه الاقتحام من غير تثبت وهو المعنى الذي يريده اكثر العامة اذ يقولون : اذهب دغري وذهب دغري الى البيت واذا وجد اختلاف فما لايعتد به .

الثغرة — يلفظ اكثر اللبنانيين الثاء بين لفظها الاصلي ولفظ التاء او الطاء فيقولون اتثغرت الثغرة ويستعملون الكلام الفصيح في المواضع التي لايحسن كثير من كتاب هذه الايام استعماله فيها ولاعبرة باللفظ الذي لايفسد المعنى — لو كان اللفظ يفسد معنى الكلمة لكانت اللغة الانكليزية فاسدة في اكثر كلامها بين اللفظ الانكليزي والامريكي والكنديائي والاوسترالي .

الثلم — خط المحراث ويريد البعض جعله غير فصيح من طريقة لفظه التي اشرنا اليها في الثغرة .

احزك الحمل — شده جيداً « والمكارون » يستعملون هذه الكلمة الفصيحة التي لاترضي البعض مع ان معنى « حزكه » عصبه وضغطه واحتزك بالثوب احتزم .

بلصقي — اللبناني يقول : اجلس بلصقي اي بجنبي ولا يوجد اصح من هذا التعبير للمعنى المراد الا ان استعمال العامة له جعله عند بعض الناس غير عربي كما جعل بعض الفضائل مستهجنة بها الا ان اصحابنا هؤلاء ينظرون الى الكلام نظرهم الى المصنوعات

الوطنية التي ليس لانفسها وأدقها قيمة عندهم ولو استطاعوا ان يعاضوا عن هواء سورية العليل بهواء معمل بشرط ان لا يكون « وطنياً » لما ترددوا .

مزعه — مزقه والكلمة عربية وعلى لسان كل لبناني

شلخه — هبره بالسيف وجريمة العامة انها تستعمل الشلخ للجدية والمخجل الا ان المنتشرين على اطراف الجبل والمضطرين الى منازلة ومقاتلة المغيرين والغزاة يقولون « شلخه بالسيف »

حز — وعلى ذكر الشلخ نقول ان نصيب « حز » من (المتعصرين — ونريد بهم الذين يدعون توسمهم عصريين بلغتنا العامية) ليس افضل من نصيب شلخ . يقال : حز الشيء قطعه . وسيبويه فقه اللغة للثعالبي انه خاص باللحم الا ان العرب تقول حز الخشبة فرضها والعامة تقول : حززت المشار جعل فيه أثراً وتقول ايضاً « الحز » للقطع والحزة للقطعة ولا نرى مايعاب به الاشتقاق

حش — قطع الحشيش او طلبه وجمعه والكتاب يؤثرون استعمال « قطع الحشيش » على حشه مع ان الكلمة اصلية لا يصلح غيرها لمعناها .

القلت — النقرة في الصخر يجتمع فيها الماء واصلها لنقرة الجبل يستنقع فيها الماء ويستعملها الاولاد من العامة صحيحة دون اكثر الكتاب .

غطغط — غلب النوم عليه هذا هو المعنى الاعم عند العامة ويأتي بعده معنى غليان القدر فلو قام منشيء بليغ واستعمل الكلمة لقال « المعصرون » عنه انه يأتي بالوحشي والحوشي او ان الكلمة دخيلة لانهم هكذا يريدون اوهكذا يفهمون .

زلق — زلقت قدمه زلت . والزلقة الصخرة الملساء وبها سميت قرية في ساحل بيروت وفي التسمية دلالة على ان اللسان العربي في بلادنا فصيحاً ولاتزال الآثار تشهد له الا ان من نكد الدنيا عليه ان عارفيه — بروحه لا بلفظه — غير كثار وان جاهليه مع الادعاء بمعرفته جيش جرار

زحل — عن مكانه تنحى وتباعد

زحلقه — دحرجه ومنه تزحلق الاولاد في مطاوعه

شخر — صات من حلقه او انفه ولا ندري مايجعل الكلمة غير فصيحة في استعمالها للغطيط .

قفقف — في معاجم اللغة : قفقف الرجل ارتعد من البرد وغيره او اضطرب حنكاه

واصطكت استانه وهو المعنى الذي تستعمله العامة له تماماً الا ان هناك معنى آخر لم نعثر عليه في المتون وانما ورد رواية واسناداً في لسان العرب وهو : قفقفت الدجاجة على بيضها حضنته واستعمال الكلمة شائع في لبنان للمتنيين فهل اغرب من هذا النقص في معاجم اللغة

وخش — الشيء كان وخشا اي رديئاً وهذا هو المعنى الذي تريده العامة من الوخش ضد الناعم لانهم لايخصون الاشياء فقط به بل يتناولون بمعناه رذال الناس وخشارتهم و يصيبون بكل فصاحة .

طم = بالتراب دفن وغطى

كب = افرغ

طرقة — طريق

من الحاضر — من الجاهز

بتكه قطعه تشديد بتكه للمبالغة

بت — الامر امضاه

بربر = صاح واجلب وتكلم بالفاظ وحشية

قرقر = شقشق (حاجي قرقر وتبربر)

وكل كلة مما مر واجبة الاستعمال في موقعها اذ ليس مايسد مسدها

القز = في محيط المحيط ان العامة تستعمل القز لما غزل من الفيالج المبيضة فهل هي تستعملها الا لما استعملها له الشاعر القائل :

« يرتلن في سرق الحرير وقزه » ؟

راز وروز = يقال رازه جربه وامتحنه، وقدره وراز الرجل اختبره قال الحريري

لاتسأل المر من ابوه ورز خلاله ثم صله او فاصرم

وروز كلامه روأ في تقديره وترتيبه فما قول المتفرنجين !

تنش — تنش اللحم جذبه قرصاً والشعر نتفه

التنفة = ما تنتفه باصبعك والفعل تنف بمعنى نزع . يرى المنزوي ان معنى العامة في محله وان انكر المنكرون وعلى هذا المثال ثفل وثقل

نش = الغدير أخذ ماؤه في النضوب وهو المعنى المستعمل له النش عند العامة اكثر من التحلب والنز . والنز من العامي الفصيح وهو النجل او الماء المتحلب من الارض

بقبق — من من السوريين لم يسمع هذه الكلمة ؟ تقول العامة فلان بيقبق اي يهذر وفي المعاجم ان البقبقة تقريب الكلام على الناس وربما كانت فلسفة الكلمة في المعنى العامي الذي يتناول معنى الهذر والثقثقة والغموض

وهم يقولون ايضاً عند ازالهم الجرة في حوض او الدلو في بئر ان الماء يبقبق فليطلب الادباء الأصل لتثبت لهم فصاحة الكلمة

قرفة — يقال بنو فلان قرفني اي هم الذين اظن عندهم طلبتي وسل بني فلان عن ناقتك فانهم قرفة اسيء تجد خبرها عندهم والعامة تستعمل الكلمة كالقراف والمقارفة مصدري قارف اي قارب

وقراف من لا يستفيق دعارة يعدي كما يعدي الصحيح الاجرب

الا ان اصل المقارفة للاشياء الدنيئة وما لاشك فيه ان التعميم الذي جرت عليه العامة ناتج عن المخالطة المفسدة للغة الا ان غرضي الآن هو اثبات صراحة اكثر الكلمات الدارجة واذا وجد في بعضها خلل فذلك من جهل المدعين فوق ماهو من مخالطة الاعاجم اما تروني كيف تستدرك العامة المعنى بقولها : مقارفة التاجر الفلاني حسنة والآخر رديئة فروح اللغة لاتزال فيهم وهم افيد لها من الذين لايفهمون ولا يريدون تفهم معنى الكلام

قرف — تقول العامة قرف قمعة الشجرة اي انتزعها والاصل التقشر

تف — هذا مثل التف عندي مثل وسخ الظفر وقد لاتكون العامة تفهم ان التف هو وسخ الظفر الا انها تفهم انه شيء لايعبأ به وتستعمل الكلمة فصيحة

تفه — اصل هذه الكلمة تفه وفساد لفظها لا يفسد معناها فهي فصيحة يجب استعمالها على حد ماتستعملها العامة بعد اقامة اللفظ فهي تقول : شيء تفه وامر تفه وكلام تفه وقولها صحيح فصيح

هبط — لازم متعد يقال هبط بمعنى سقط وهبطه بمعنى انزله واكثر استعمال العامة للفعل مشدداً فهم يقولون هبط الحائط فاين المأخذ ؟

مسماك — المسماك عود يكون في الخباء يسعك به البيت اي يرفع قال ذو الرمة الثقفي :

كأن رجليه مسماكان من عشر صقبان لم تقسم عنهما القحف

والكلمة مستعملة عند القرويين بمعناها الوضعي الا انهم يستعملونها لرفع الكرم ايضاً

ويظن البعض انها لا تعود فصيحة فعلى هذا المذهب الغريب لايجوز لنا ان نضع للجامحين شكيمة ولا ان نلقي الى الاكفاء مقاليد الامور .

ان بلية اللغة في ابنائها المقيدين لانهم مقيدون ولما كنا نبحث في المسماك فلا بأس من استعمال الكلمة العامية الفصيحة من ان كل من لايكون لطيفاً يكون بالطبع « سميكاً »

هبج — هيجه بالعصا ضربه وهيجه ورمه وتهيج تورم وبما ان العامة تستعمل الفعل بمجرده ومزيده لم يعد عند المتشئين فصيحاً

هبش وهمش — لينظر العارفون اذا كان معنى الجمع والالتقاط تاماً ام لا

جرّس — المتشئون يستعملون شهر والعامة تستعمل جرس للتسميع بالناس واشهار عيوبهم ونقائصهم والكلمة العامية اصح واوقع .

« ماهذه الجرسة ! »

هاش — لا تلتفت ياقارئي الى هوّش الكلاب وتهويشهم فان ابناء العربية آخذون بحناقها وانما تذكر قول العامة : « الناس هاشون » وقولهم : « هم في هوشة وكانوا يتهاوشون » للدلالة على الهرج والهيج والفتنة والفساد والاختلاط وتذكر في الوقت نفسه ان الكلمة عربية فصيحة وان « الهوش والبوش » من فصيح اللغة ايضاً وانه لاينقصنا الا التحقيق والتدقيق

الكلمات التالية كلها من فصيح العربية المحسوبة عامية

الشلشلة القطران والانتشار — التشمير للرفع والتقليص — قشّ الشيء جمعه والاولاد والنساء في لبنان يقولون : نحن ذاهبون الى الحقل او الحرج نقشّ اي نجمع الوقود — هارش واثب وخارش للناس والكلاب والشيء بالشيء يذكر فالعامة تقول : رجل هرش للشيخ ولنا فعل هرش الرجل يهرش اذا ساء خلقه فاذا كانت كلمة هرش عربية فهرش مصحفة وهل اقدر الائمة لايلحنون ؟ — لازق لاصق — ولصقي واصق بيتي بجانبي وجانبه — الهتيكة الفضيحة وهي في لسان العرب دون الفيروز ابادي ومحيط المحيط — حاص حوله اي حام — نعر صوّت بخيشومه وصاح : كفى تنعر وفلان ينعر — رزه غمزه والشيء في الشيء اثبته : رز الوتد ورز المدل والمد والجراب — صوّل الحنطة والكلس — عزوة الرجل — نُتْفة ونَتَفه ونتّفه — الوأف — خارت قوته اي

ضعف — عزره لامه ووبخه — الولودية الصغر — خنخن لم يبين كلامه اي ابدى خنة او غنة في خياشيمه — خنفس عن القوم : كرههم وعدل عنهم ومنه فلان مخنفس والولد مخنفس . تفاصح تكلف الفصاحة — فلتة لسان وفلت لسانه . السحت الكسب من مال الحرام — نكس رأسه طأطأه — تعوق تأخر وتربث — يسرها الله : سهلها — طعمه مز : فيه مرارة اوطعم بين الحلاوة والحموضة قال الحريري :

لا ابالي من اي كأس تفوقـ م تُ ولا ماحلاوة من مرارة

همدت النار : ذهبت حرارتها وطفئت البتة — نصت وتنصت : سكت مستمعاً وتسمع — خبص الشيء بالشيء خلطه وخبصه للمبالغة — الخبثة : التواضع والخشوع — تزنتر : تبختر وهي فصيحة الا ان العامة تكره التزنتر والتبختر — حت : حك وقشر — خبطه : ضربه ضرباً شديداً

تبقط — تقول العامة : فلان يتبقط والمعنى انه يتناول الشيء قليلاً قليلاً او شيئاً شيئاً الا ان استهزاء جهلة المتعلمين بالعامة يجعل الكلام الفصيح غير فصيح عند الاغبياء دون سواهم .

قرفص — من اين اتت القرفُصاء التي هي ان يجلس الرجل على أليتيه ويلزق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه اذا كان لايوجد لها فعل بمعناها فان قول العامة « قرفص » يدل على القرفصاء الا ان المعاجم تنكر هذا المعنى مع وضوحه . انشد ابو المهدي

لو امتخطت وبراً وضبنا ولم تنل غير الجمال كسبا
ثم جلست القرفصا منكبا تحكي اعاريب فلاة هلبا
ثم اتخذت اللات فينا ربا ماكنت الا نبطياً قلبا

الا ان العربية في حاجة الى التحقيق والتدقيق . انظر الى فرع آخر من هذا الاصل فانهم يدعون الاصوص المتجاهرين « قرافصة » لانهم يقرفصون الاسبر اي يشدون يديه تحت رجليه الا انهم لم يذكروا للجمع مفرداً والجموع التي لامفرد لها غير قليلة فهل هذا معقول ؟!

نبر — من معاني نبر المعنى الذي اتخذته العامة لرفع الصوت . انشد اللحياني

اني لاسمع نبرة من قولها فأكاد ان يغشى عليّ سرورا

فلماذا لاتكون الكلمة فصيحة . لاندري !

نهر — بالله يالابناء العربية ماهذه الفوضى ! تقولون نهر السائل وانتهره زجره والعامة

تستعمل المعنى نفسه الا بعضها للنداء عن توسع ومايثبت وجود معنى الزجر في نهر العامة انها لاتستعمل الكلمة الا عند الحدة والشدة فقدو اللغة هم اكثر حملة الاقلام لا العامة التي لاتزال محافظة على مالا يحافظ عليه اكثر الدارسين . وقريب من نهر نده .

تحوج — متى ذهب الناس في طلب الحاجات يقولون نحن ذاهبون نتحوج وكذلك يقولون عند شراء حوائج العروس ومع ذلك تعتبر الكلمة عامية عن غير تروا ذ ماهي بضاعة التاجر غير حاجته « وجهاز » العروس غير حاجتها ؟

خش — اهلاً وسهلاً خش . اي ادخل وخشت الحية في الحائط دخلت والكلمة من الفصيح

هتّ — بماذا تهتني تعيرني وتحط مرتبتي ومنزلتي

مقمق — يجب ان يكون لنا من معنى التكلم باقصى الحلق هذا الفعل بدليل وجود اسم فاعل منه وهو المقامق الا ان معاجم اللغة لاتشير الى شيء من هذا او ان النقص الظاهر فيها تكمله العامة بقولها : فلان يشقشق ويمقمق فليرجع المنقبون الى المتون ويعتبروا

طاح — ذهب وتاه في الارض ومنه « الطائح » عند العامة للفار من وجه الحكومة ولا يوجد كلمة ادل على المعنى فيجب استعمالها

انثم الجسم — قلنا ان بعض لفظ العامة غير صحيح الا ان كلامهم فصيح ومن الشواهد « انثم الجسم » اي ذاب وضعف وبعض الدروز في لبنان لايزالون يلفظون الكلمة « على حقها » ولا يبدلون الثاء سيناً وشيء من العناية يرجع الى اللغة رونقها ولو ان الحكومة تقيم الائمة لاقامة الكلام واللفظ لكانت تخدم البلاد والعباد . ما زالت مدارسنا توجب على التلاميذ التخاطب بلغة اجنبية ولا توجب عليهم التخاطب « ولو لساعة » بفصيح لغتهم كأن التخاطب بفصيح العربية عار وبفصيح سائر اللغات فخار

وقوق — من فصيح اللغة ان الوقواق المكثار والوقواقة المهذارة قال ابو بدر المسلي

ان ابن ترفى امته وقواقه تأتي تقول البوق والحماقه

الا ان المعاجم لاتذكر الفعل الا لنباح الكلب واختلاط صوت الطير وعندي ان الكلمة على ما تستعملها العامة صحيحة فصيحة اذ كيف يقولون وقواق ووقواقة ولا يقولون وقوق بمعناهما ثم ان العامة تستعمل « الوقوقة » في التهكم كأنها تقول ان فلاناً يخلط ويلت فاذا رفض اللغويون الا التقيد بسلاسل التقليد البليد فلا اقل من التسليم بصحة المجاز

لت — ثم ان اللت هو الخلط فلماذا يجوز لنا استعمال الخلط واعتباره فصيحاً ولا يجوز لنا استعمال اللت وهو بمعناه . فكم انت مظلومة ايتها العامة !

فقع — مات من شدة الحر والعامة تقول « فقع ومات » مع تخصيص المعنى بالهم والغم الا ان المراد ظاهر وحوادث الفقع في حمارة الصيف كثيرة في امهات مدن الولايات ويجب استعمال الكلمة الا من « مفاقيع » اللغة .

تصيع الرجل = ضل . من تصيع الماء اضطرب على وجه الارض وفي الحرف معنى التفرق بتردد وتحير فلماذا لانتوسع في اللغة كما توسع العرب قبلنا .

المداس = الحذاء الذي يلبس في الرجل « والمتفرنجون » يفضلون استعمال اللستيك والصباط والجزمة لان « المداس » مستعمل من العامة فكأنهم يحاولون اظهار تفوقهم بنبذ اصح الكلمات العربية لا لحجة الا ان الكلمة من غير « زيهم » الحديث

حنك فلاناً = دلك حنكه والغريب ان الكلمة تعد عامية متى استعملت لدلك القابلة حلق الطفل قبل ان يرضع فاذا كان معنى الدلك موجوداً فاين « العامية » في الكلمة وهي على فصاحتها . ابعط في كلامه : لم يرسله على وجه قال رؤبة

وقلت اقوال امرئ لم يبعط اعرض عن الناس ولا تسخط

وابعط في السوم تباعد وتجاوز القدر — قال حسان

ونجا اراهط ابعطوا ولو انهم ثبتوا لما رجعوا اذاً بسلام

سفق — سفقه بالكف : لطمه قال ابو منصور سفقت الباب واسفقته أجفته . وسفق وجه الرجل لطمه فاستعمال العامة للسفق في محله .

دمشق — الشيء زينه . قال ابو نخيلة :

« دمشق ذاك الصخر المصخر »

وهذا هو معنى العامة : شاب مدمشق وقامة مدمشقة

دلق — تروى في المعاني التالية ، تدلق السيل عليه واندلق هجم واندفع — اندلق الشيء خرج من مكانه وكل ماندر خارجاً فقد اندلق ويقال : طعنه فاندلقت اقتاب بطنه اي خرجت امعاؤه ودلق وادلق السيف اخرجه فاي جريمة لغوية في استعمال العامة للدلق والاندلاق بمعنى الصب والانصباب

عثر — زل ومعثر ساقط وزال والعامة تلفظ الثاء تاء

خثر — جمد وتماسك ومخثر مجمد

لزّ — الشيء شدّه والصقه والقوم اجتمعوا وتضايقوا والشيء بالشيء الزمه به فليعتبر اللغويون

زمك — عن ابن الاعرابي زمكت القربة وزمجتها اذا ملأتها والزمك ادخال الشيء بعضه في بعض والعامة تستعمل المجرد والمشدد استعمالا صحيحاً

زرك — زرك الغلام ساء خلقه . هذا عند اللغويين فصيح ولكن الا يجوز لنا ان نعامل زرك معاملة « سئم » فنقول اسأم وسأم وازرك وزرك ولماذا ؟! قد تكون العامة على صواب

دعقه — في لسان العرب . الدعق الدق ومحيط المحيط لايذكر هذا المعنى الذي هو معنى العامة تماماً الا اذا كان لايجوز لنا استعمال الصب للبترول — لانه لم يكن عند العرب ولا لسائل آخر غير الماء والخمر

حوّشه — جمعه وانحاش عنه تقبض ونفر والحواشة مايستحيا منه والعامة تستعمل كل ذلك دون حملة الاقلام

لقلاق بقباق — مهذار كثير الكلام واللقلقة تقطيع الصوت والجلبة ولقلق وقلقل بمعنى واحد للتحريك والهز

لاط — لاطه خلطه وعجنه وقد وردت في كلام الامام علي

الحدّو — الحدو عند الموت من الفصيح

سن — سن الارض ملسها قال الشاعر:

ثم خاصرتها الى القبة الخف مرآة تمشي في مرمر مسنون

وهو المعنى الذي تستعمله القروية اللبنانية بعد ان « تطين بيتها او تمرحه » وتسنه وتسن « الحجرية »

شرم — شق وقطع فهو مشروم بكل فصاحة

استملح — الشيء عده مليحاً .

سبرك صبري — تريد العامة بذلك ان عليك ما علي لان اصلك كاصلي وهيئتك كهيئتي وليس من مغمز

تعنفص — كان ذا صلف وخفة وخيلاء وادعى بما ليس فيه ولا يريدون ان يكون له رباعي

تعنجت : شكلت وتدللت

تغلج : فلان على فلان بغى عليه وظلمه فهو مغلج

ثخنها : غلظها وصلبها

حزر : الشيء قدره وضمنه وحزره التي عليه مايحزره

اقلعت الباخرة = في الجرائد والمجلات والكتب نقرأ هذه العبارة الواجب الاقلاع عنها — كانوا يقولون اقلعت السفينة اي نشرت شراعها اوقلوعها لتمخر شاقة الماء ولم يكن ايام كانوا يستعملون العبارة بخار اما اليوم فلا يجوز ان نقول اقلعت الباخرة بل مخرت اوجرت الا اذا كان المركب غير بخاري وفي مثل هذه العبارة يظهر فضل اللغة العربية ويثبت لهؤلاء الذين لايعرفون شيئاً منها اننا بغنى عن تحدي الفرنجة الذين يقولون « اقلعت الباخرة » لفقر لغاتهم

ضربت بكلامه عرض الحائط = مهما التمس « المجازيون » من الاعذار لا اجد هذا التعبير عربياً فاننا لانضرب عرض الحائط بالكلام لنهمله ونسقطه ونطرحه ونرميه . نحن نقول في العربية جاء في كتاب فلان فضربت به عرض الحائط وانما لانقول مثل هذا القول عن الكلام نفسه

حررت له وارسلت له = اصعب ما في اللغة على الدارسين انفسهم احسان استعمال حروف الجر وكل مدقق يتناول الجرائد والمجلات الا العدد القليل منهن يضحك من كثرة السقطات التي لايعذر منشيء عليها وفي مقدرته شراء معجم او في رأسه قوة تميز بين هذا وذاك المعنى فانت لاتكتب لاحد الا اذا استكتبك ولا ترسل له الا اذا كلفك الارسال اما اذا اردت ان تقول انك تخاطب احداً بالكتابة فيجب ان تستعمل « الى » لا اللام وهكذا في الارسال ثم ان التحرير ليس الكتابة ولا الكتاب او الرسالة بل « انقاذهما من عبودية السقط والخلل » والغريب جداً ان منشئي الجرائد والمجلات يدعون الكاتب محرراً وهم يريدون المنشيء لا المصحح ولا المصلح ولا المهذب ليعذروا والاغرب من ذلك ان بعض جامعي المعاجم العربية سقطوا في ما سقط فيه غير المتمكنين والمدققين وقالوا عن الكتاب والرسالة « تحرير » فأوردوا ولم يقوموا .

غب افتقاد شريف الخاطر العاطر = هل على مثل هذه البلادة في الانشاء بلادة !

كل كلمة بنفسها فصيحة الا ان مجموعها لامعنى له والمسؤولية الحقيقية على المدارس

والاساتذة الذين يسقطون الى الجاهلين ولا يرفعونهم اليهم بل ان الجري على الطرائق القديمة يجعل اكثر الكتابات سقيمة عقيمة « خالية من المعنى ولكن تفرقع »

ابقاء القديم على قدمه يجب ان يرجع الى عهد بلغاء العربية لا الى العهد المتأخر الذي اعتور اللغة فيه الخلل والفساد فما معنى العاطر والفاخر والشريف مع الخاطر ولماذا لانكتب ونكاتب بفهم وسهولة وبساطة وسلامة ؟

دام بقاؤه — طلب الدوام حماقة وحرام . اي بقاء يدوم ! تدوم المادة بعد استحالة ولكن الذين يطلبون دوام البقاء او يدعون للناس به لا يرد بدون المادة بل البقاء في دار الفناء وخلود من اعدت لهم الخلود

عمى الدمع من عيونها — كم من العيون للمرأة وان تكن العيون عليها كثيرة الملاحة الجوية — « في طعم هذا الاصطلاح ملح » فانه من غير روح العربية ومن غير فقهها فاذا كنا نحن اصحاب الجرائد اليومية نلتمس الاعذار لضيق اوقاتنا عند ما نلجأ الى الحواضر فما هو عذر اساتذة المعاني والبيان في المدارس والكليات وما هو عذر اصحاب المجلات — المطير اصلح من الملاحة وانما لابد من اختيار كلمة اصلح

المظلم والعاصر — خرج من عالم الخرافة « المظلم » الى بلاد الحرية « العاصرة »

الجرح يدمي — الجرح لايدمي وانما يدمى

خذ اي كتاب ومجلة وجريدة واعتبر فلسفة كتابتها دون الالفاظ . او المعاني دون المباني . تجد اننا — الا عدداً قليلاً من حملة الاقلام — نتعسف ونتكلف ولا نراعي المعاني والبيان لان اكثر المنشئين منطفلون

نحن ابعد ابناء اللغات الحية عن وضع الكلام في مواضعه واقعاده في مواقعه لاننا لانتدرس فلسفة اللغة بل لان اكثر اصحاب الجرائد والمجلات والمترجمين والمؤلفين من غير الاكفاء الا بالتبجح والادعاء او ان اللغة امست واسطة للكسب والارتزاق حتى بالعبث والنفاق واليك بعض مايخطر في خاطري الآن اجيء به وأكل اليك الحكم

طارت نفسه شعاعاً — تخوصات الاوهام — يغيظه من النظام — هل يعتمد كلام السقيم في « طعم » الماء — رفع الاين باسطاً يده الى والدته — سقط عليه بالضرب حتى « جلد » به الارض — الجالية والطارئة : دون تمييز بين الاستيطان والعود — يسير ويسري دون فرق بين صفر النهار والليل — « رحلوا » في القطار الى المدينة والولاية الفلانية . زاره اخوه فاحسن « قراه » = ضيفوا مع اصحابهم الى واشنطون =

شخص البياع الى بوسطن — كان الخواجا فلان يتدفق في خطابه كالسيل المنهمر الا انه اعتذر بانه غير خطيب وشكر الناس وجلس دون ان يتكلم !

ثم ماهي فائدة الحركات في اللغة اذا كنا لانريد الا نصرف عن جعل الواو « الثقيلة الد » في اولي وعمرو وحيوة وصلوة بحجة التمييز وازالة اللبس وهلا يوجد غير هذه الكلمات في العربية بحاجة الى الضبط ؟ ثم ماهي فائدة الحركات اذا كنا نكتب « إله » ولايجوز لنا ان نكتب مؤنثه إلهة ؟ ثم كيف يعقل ان تكون جموع لامفرد لها مثل شلقة ومخاطر ومحاسن وشماطيط وما جمعه الثعالبي وغيره وهل كل مالايكون سمعه الجامع لايكون وضعه الواضع جريا عَلَى القياس ؟ وكيف يمكن ان تكون المطاوعة في فعل ولاتكون في آخر مثله قلما ؟ وكيف تكون صيغة افعل التفضيل في ما لافعل له كقولهم : هو افلط منه او كيف يكون مضارع لاماضي له كقولهم : لم يذر ؟ اومزيد لامجرد له والامثلة متوفرة ؟

وثمت مثابت العربية بعد ان كانت مستحلسة وتفاصح كل من لم يكن فصيحا ولن يكون متفصحا فوجب ان يرجع الناس الى فقه اللغة الذي لا اعني به كتاب ابي منصور الثعالبي بل فلسفة اللغة حتى لايرسل كل من اعتر بقدرته الكلام عَلَى عواهنه ويجب ان من جمع كلمة الى كلمة كان شاعراً ونائراً واماماً وثقة — يجب الاقلال من الترديد المبهم الذي لايزيد الا اعتكالا والاعتدال في تعليم القواعد بحسب كل مذهب والتوثق في معاني البليغ من المنظوم والمنثور والاستكثار من حفظ الجيد ولاسيما مايدعى السهل الممتنع ويجب ان تكون مجلاتنا وجرائدنا المدارس الحقيقية فترفض كل كتابة عليلة بالمعاني الضئيلة وينبه المغرور والشعرور الى مايفسد الذوق ويدعو الى الهزء . ومن فقه اللغة ان نصطلح عَلَى مايذلل لنا صعاب اللفظ عند الترجمة والاستشهاد اي ان يكون لنا مانستطيع معه نقل الكلمة الاعجمية من نكرة وعلم الى معناها الاصلي وقد كان للعرب دوم واشتام فليكن لنا زيادة عَلَى مثالهما والله ولي التوفيق

تولستوي

فقدت الحكمة عضواً عاملاً من دعاتها وعمدة ثقة من اعز انصارها ورعاتها وانساناً كاملاً خدم الانسانية بافعاله واقواله وادهش ارباب التقاليد بحسن مثاله وراع قلوب اهل السلطة بحظوته واقباله ونعني به فيلسوف روسيا واحد رجال الاخلاق في هذا العصر الكنت ليون تيكولا يفتش تولستوي الذي هز نعيه ارجاء العالم المدني واكبر رجال الاصلاح هول المصاب به

ولد هذا الحكيم في ياسنايا بوليانا من اعمال ولاية تولا الروسية سنة ١٨٢٨ فيتم من امه وهو ابن سنة ونصف وفقد اباه في العاشرة وهو من بيت وجاهة وغنى وكان جده سيء الادارة يميل الى البذخ والاسراف ففقد ثروته حتى اضطر الى التوظف فعينته روسيا والياً لقازان وجاء ابنه والد تولستوي ولم يكن على شيء من العفاف حتى العشرين من سنه [1] ورزق ابناً من خادمة زوجه منها اهله ثم تخلى عن الوظائف وتزوج بوالدة تولستوي وكانت غنية تحسن الروسية كتابة وقراءة كما تحسن الانكليزية والالمانية والافرنسية والايطالية والفنون والضرب على البيانو وكانت على جانب من حرية الفكر وسلامة الوجدان والسذاجة

واشتغل والد تولستوي بالزراعة في الاملاك الواسعة التي ورثها عن ابيه واتصلت اليه من زوجه وكان يحب المطالعة واقتنى مكتبة فيها شيء كثير من آداب الفرنسيس وكان من عادته ان لا يقتني كتاباً قبل ان يأتي على مطالعة ما اقتناه من قبل فنشأ ليون تولستوي على اللغة الافرنسية وكان يفهم كتب الفيلسوفين الفرنسيين روسو وفولتير كما يفهم شعر بوشكين شاعر الروس واخذ الافرنسية عن استاذ فرنساوي اسمه سان توما ولم يبلغ الخامسة عشرة حتى كان متشبعاً بآدابها

ربي في المذهب الارثوذكسي ولكن لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره حتى تجرد عن الاعتقاد بالكنيسة ولكنه عمد الى التقية فلم يكن يظهر ما يضمر وكان وهو طالب يقوم بالفروض والواجبات وغادر سنة ١٨٤٧ الكلية التي كان يدرس فيها ليلتحق بالفلاحين ويحسن اليهم الا انه لم يفلح وفي سنة ١٨٥١ سافر الى قافقاسيا حيث عين ضابطاً في المدفعية واشتهر ببسالته في حصار سواستبول فعين قائد فرقة وكان في خلال تلك المدة

(١) المقتبس م ٢ ص ٤٠١ ترجمة تولستوي لنفسه

قد نشر باكورة كتبه موقعة بالحروف الاولى من اسمه واسم أسرته ثم اقام في بطرسبرج مدة فكتب عدة مصنفات وقصص له وساح سنة ١٨٥٨ في المانيا وسويسرا وفرنسا وعاد الى روسيا بعد تحرير الفلاحين فانشأ في بلده مدرسة نموذجية للفلاحين ومجلة في التربية والتعليم وعين قاضي صلح . وفي سنة ١٨٦٢ تزوج وطابت نفسه وحسن سلوكه ولم يكن من قبل كما قال عن نفسه على حالة حسنة في آدابه، وكانت كتبه التي كتبها لاول عهد زواجه احسن ما خطته يده واسلمها فكراً وفي سنة ١٨٧٤ اخذ يتساءل عن مصير الحياة فصارت تبدر بوادر ذلك على أسلة قلمه ولسانه حتى اذا كانت سنة ١٨٨٣ تعرف الى فلاحين كانا انشأ آ لهما مذهبين دينيين من مقتضاهما ترجيح العهد القديم على العهد الجديد وان اصلاح العالم لا يتم الا بالعمل اليدوي والشخصي وبعد ان جاهد تولستوي نفسه تخلى في رواية عن بعض اعلاكه فوزعها على الفلاحين وترك جزءاً منها لأسرته كان يعمل فيه بنفسه على نحو ما يعمل صغار الفلاحين بايديهم ومنذ ذاك الحين لم يترك بلده وطفق يبحث الارض كما يبحث الآداب ويبث الفضيلة وصار قصره مجمع العلماء والفضلاء . وفي ٢٤ شباط ١٩٠١ حرم المجمع المقدس الروسي تولستوي لالحاده وخروجه عن ربقة التقاليد الارثوذكسية وتخوفت الحكومة الروسية عاوية افكاره فصارت تراقبه حتى كادت تفيه مع الوف ممن كانت تنفيهم الى سجونها في سيبريا لولا ان لطف الله به ونفس خناق الحرية عن امته بانشاء مجلس الامة

ويعتبر تولستوي بانه من اقدر القصصيين الذين نبغوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد اجاد في ذكرى الماضي من حياة امته ووصف الروح الروسية والاخلاق الروسية بحسن مأتاه وجودة اختياره وتفصيله وتصويره فكان بما رزق من هذه الهبة يصور لك ابطال قصصه كأنهم احياء بل يصور كذلك الاشخاص من الدرجة الثانية والجمهور . وهو قليل العناية بانشائه ولذلك لا تقرأ عليه نسخة التفنن واذ قد نشأ تولستوي لاهوتيا تراه يحاول ان يقترب مما يراه بانه النصرانية الاصلية . وتطالبه الفلسفة الطبيعية بأنه احد دعاتها والمناضلين في ضرامها وان تولستوي ليبحث في كل مكان عن الطبيعة . والجوهر في قاعدة حياته الجديدة هي الطبيعة الصوفية وللاخلاق عنده المقام الاول وجماع القول في فلسفته ان « لا يقاوم الشر بالشر » . وقد ظهرت كتبه كلها في اللغة الروسية في ثمانية عشر مجلداً وترجم معظمها الى لغات اوربا الراقية وترجم بعضها الى العربية ولا سيما قصصه .

وهذا الدور الاخير في حياته هو الذي تمنى ان يموت عليه قال في ترجمته نفسه : لما ذكرت ماأتيت من خير وما تم على يدي من شر رأيتني اقسم ادوار حياتي الطويلة باسرها الى اربعة ادوار : اولها ذاك الدور العجيب خصوصاً اذا قيس بالدور الذي يليه — البار البهج الشعري واعني به دور الطفولية . ثم الدور الثاني وهو عشرون سنة كان فيه من الغشاء الغليظ والخدمة والطمع بالمعالي وخصوصاً في المكاسب ما كان . ثم جاء الدور الثالث وهو ثماني عشرة سنة اي منذ تزوجت الى تشوري الروحي وهو الدور الذي يحق له ان يدعى في نظر العالم دور الاخلاق بمعنى اني عشت في هذه الثماني عشرة سنة كما تعيش الأسر بالحشمة والنظام غير مستسلم لمفسدة يبذها الناس ولكن جميع مصالحي كانت مقصورة على عنايتي بأسرتي عناية مقرونة بحب الذات ممزوجة بالانانية وعلى زيادة ثروتي وعلى نجاحي الادبي وعلى مختلف حظوظ تنالها نفسي والدور الرابع يرد الى عشرين سنة التي انا فيها الآن واود ان اموت عليها وبها يتمثل لي مافي الحياة الماضية من عظيم الخطر وهو الدور الذي لاابغي سواه ماخلا اعتيادي الشر الذي اندمج في روحي في الادوار الاخيرة .

هذا مجمل من طفولية تولستوي وشبابه وكهولته وشيخوخته وقد نشأ فيه القيام على الظالمين ومجاهدة المستبدين من الرؤساء الدينيين والدنيويين مما ثقفه عن خالته تاتيانا الكسندروفنا وكانت من النساء المتهذبات فعلمته الحب والميل الى الوحدة والتأثر من المظالم كما علمه روسو وفولتير نزع ربقة التقاليد الموروثة . ولكن تولستوي لم يتحرر كل التحرير من رق العبودية للمحيط والمنشأ وبقيت فلسفته ترشح من صبابات النصرانية ومدارها لاتقابل الشر بالشر . ولو سارت اوربا على هذه الفلسفة لما قام عمرانها وانبسط سلطانها على ماترى . فلسان حال الغرب « وجزاء سيئة سيئة مثلها » فحكمة تولستوي ليست كحكمة معظم انصار الحكمة في الغرب اليوم مادية صرفة بل هي روحية ممزوجة بطرف من آداب النصرانية تتخللها عقائد اشتراكية متطرفة فهو لايرى ان يملك الأرض احد لانها لله بل ان تترك وشأنها ينتفع بها عباده ويرى ان لايعاقب المجرمون بالسجن بل ان يصفح عنهم الصفح الجميل ولايعتقد بالوهية المسيح بل يرى انه انسان ذو مذهب هو خير المذاهب للناس ومن افكاره الاشتراكية بل الفوضوية ان احسن الطرق في الخلاص من ظلم الحكومات ان يمتنع الناس عن الخدمة العسكرية وعن اداء الضرائب وبذلك تضطر الحكومات الى اصلاح امرها

ومن تعاليم تولستوي الادبية ان يبتعد المرء عن مغازلة النساء ويقيد بزوجه قلباً وقالباً ولايهجرها لان هجرها مفسدة واي مفسدة وان الواجب ان لايفرق الانسان بين مواطنيه والغرباء لان الناس ابناء اب واحد وام واحدة وان يسعى كل امريء بازالة عدم المساواة بين البشر حتى يعيشوا بسلام . وله آراء في المعاد بعضها مما لايقره عليه رجال الدين

ولقد ضاق صدر تولستوي قبيل وفاته من شؤون بيته وبقال انما نشأ ذلك من مقاومة أسرته له في امر خيري كان يريد ان يختم به حياته وهو ان يجعل ريع كتبه مادام الدهر وقفاً على أمته فلم يوافقه على هذا الفكر اهل بيته ولا سيما زوجته المشهورة ببخلها فقام تولستوي ذات يوم ورافق طبيبه على نية الهرب من بيته وركب في الدرجة الثالثة من القطار ليساوي الفقراء ولكن كانت المركبة مكتظة بالركاب حتى لم يكن فيها محل يجلس فيه الشيخ الحكيم فعرض موظف السكة الحديدية عليه ان ينتقل الى الدرجة الاولى او الثانية فابى ونزل في احدى المحطات وهي اصكايوفا وبصق دماً وزادت حرارته ثم انزل الروح في غرفة مدير المحطة وبقال ان الفيلسوف كان ينوي ان يلحق باحد الاديار لينضم الى من فيه يعبد الله على مناحيهم وانه قابل ابنة له راهبة في طريقه وفاوضها بضع ساعات كما خلا ساعات برئيس دير ثان

والاقرب الى القعن ان تولستوي عزفت نفسه عن الدنيا واحب التجرد عنها وعن الملاذ والابهة في قصره وعن عيشه المحفوف بالخدم والحشم شاء ام ابى واراد ان يفعل الخير بوقفه مداخيل كتبه على الامة فاكسبته زوجه وكان منه ان هام على وجهه لايدري كيف يسير فوافاه حمامه وشق نعيه على امته البالغة مئة وخمسين مليوناً من البشر وعلى كل من اطلع على طرف من افكاره وفلسفته العملية من منوري الارض ولا عجب اذا عدته امته مفخراً من مفاخرها جاد به الزمان وعده اهل الاخلاق والحكمة والاصلاح من اعظم من عملوا لادب النفس واصلاح المجتمع الانساني

سير العلم والاجتماع

الصناعة في مصر

القى علي بك ثروت خطبة في الصناعة في المؤتمر الوطني المصري جاء فيها ما ملخصه :

لم يخطئ من قال ان الصناعة أثر الذكاء الانساني في استخدام الطبيعة وتصغير أشكالها والتأليف بين قواها المختلفة ولذلك كانت اقوى الامم من بنت هيكل قوتها على اساس متين من الصناعة.

وقد كانت امتنا المصرية راقية في صناعتها منذ القدم . ولا تزال الآثار التاريخية شاهدا حياً على مبلغ رقيها الصناعي . وكفى في الدلالة عليه ان البلاد المصرية هي التي نبتت فيها قوى القراءة ومدنيتهم وحفظت معها مدنية الغرب

وكان حظها من الصناعة في التاريخ الحديث وافرا فانه لما ولي محمد علي باشا الكبير الاريكة الخديوية افرغ جهده في ترقية الصناعة الاهلية وجلب لها من الخارج ما ينقصها من فنون الصناعة الاجنبية

نظر الى البلاد المصرية نظر حكيم فرأى انها بطبيعة تكوينها زراعية صناعية فشمر عن ساعد الجد واخذ ينشئ المصانع المختلفة في كثير من بلاد الوجهين البحري والقبلي . اعانه على ذلك علماء فرنسا بعض اساطين الصناعة فيها وساعدوا ايضا كثيرين من الايطاليين والنمساويين . وقد جاوز عدد المصانع المختلفة التي انشأها مائة وخمسة وسبعين مصنعاً يصنع فيها الخزف والزجاج والجلد والجوخ والانسجة المتنوعة والخيوط بانواعه والطرابيش والالبسة والاسلحة والبارود والمعادن والمدافع والسفن الحربية وجميع ما له علاقة بالمعيشة . فكان المصري يلبس ملابس اهلية تصنع في بلاده وكانت المدن الكبيرة والصغيرة والثغور وسائر البلدان العامرة حافلة بهذه المصانع والمعامل المتنوعة

ارسل الارساليات العديدة الى كثير من العواصم الاوربية لاتقان الصناعة حتى اذا عادوا الى بلادهم بعد ذلك آبوا واتقين تلك اسرار الفنون محيطين بدقائق الصناعات فحلوا محل اولئك المعلمين في المصانع المصرية

انشأ محمد علي مصانع اخرى لصنع الشمع واحواضاً لصنع لوازم المراكب الحربية وداراً لضرب النقود في القلعة فكانت مصر في ذلك العهد ارقى كثيراً من اليابان

أخذت الصناعة تنمو وتزهر حتى بلغت من الانتشار والرقي مبلغاً عظيما وبقيت كذلك حتى عهد الخديوي سعيد وقد امس معملا كبيراً كان يديره افرنسي كبير هو انجلو بك

ثم اخذت الصنائع الاوربية تفد على مصر وعلى الاخص بعد انشاء السكك الحديدية المصرية فالح قناصل الدول على سعيد باشا ان يبطل جميع المعامل فأبطلها ماعدا معامل الحربية فانه ابقاها كما انه انشأ مدرسة الفنون والصنائع وقصر التعليم فيها على تعليم الرسم وفن العمارة وغيرها من الفنون الجميلة

وقد وفدت على مصر في عهد الخديو سعيد بعثة افرنسية من المهندسين الجيولوجيين للبحث عن المعادن في بلادنا فأذن لهم الخديو ان يعملوا . وفي اثناء عملهم عثروا في السودان على صنف الفحم الحجري وحملوا منه كمية الى مصر اجربتها فجربت ووجدت نافعة وأقر على نفعها انجلو بك ولكن فتصل انكلترا في ذلك العهد لح على الخديو ان لا يعنى بهذا الامر بدعوى انه يكلف الحكومة المصرية نفقات طائلة فضلا عن ان الفحم من صنف غير جيد فأطاع الخديو ونفدت مصر بذلك مرفقا تجاريا مهما

وقد انشئت في اوائل عهد اسماعيل مدرسة العمليات الكبرى في بولاق وكانت هذه المدرسة قائمة على نموذج مدارس الصنائع بفرنسا عين لها جيجون بك الفرنسي ناظراً . وقد بلغت من الرقي مبلغا مدهشاً فكان المتخرجون فيها يؤدون عمل المهندس الميكانيكي والمهندس الرياضي معاً . وفي ذلك الوقت أنشئت المطبعة الاميرية في بولاق وانشئ بجوارها معمل لعمل الورق على اختلاف اصنافه واشكاله وكان ما يخرجه هذا المعمل كافيا لحاجة مصر . وقد بقيت على تلك الحال حتى هبط الاحتلال بلادنا . وكذلك انشأ الخديو اسماعيل معامل السكر في الوجه القبلي والمدارس الصناعية في كل بلد من بلاد القطر فكان عهده من هذه الوجهة عهد حياة للصناعة والصناع

قضت سلطة الاحتلال سنة ١٨٨٤ ان يلغى معمل المدافع النحاسية وتباع عددها الكبيرة فبيعت هذه العدد من شركة انكليزية بثمن بخس كما قضى ببيع عدد ضرب النقود الى شركة انكليزية اخرى وكان من هذه العدد مالم يستعمل بعد ومالم تفتح صناديقه الا ايدي رجال هذه الشركة وصدر الامر ببيع جميع عدد آلات مصنع الورق وذلك في سنة ١٨٨٥ وفي هذه السنة ايضا باعوا آلات وعدد الورشة الكبرى التي كانت الخاصة الخديوية قد انشأتها حين اشترت سراي الجيزة

وفي سنة ١٨٨٧ بيعت العدد والآلات التي كانت تداريها مغازل القطن وبيعت ورش القطن في الاقاليم واحدة بعد أخرى

وفي عام ١٨٩٨ بيعت جميع آلات دار الصناعة « الترسانة » الكبرى بالاسكندرية وبيعت مراكب البوستة الخديوية واحواضها لشركة انكليزية بمائة وخمسين الف جنيه وهو لايعادل نصف ثمن حوض واحد والاحواض كثيرة والمراكب اكثر

اما مراكب بولاق وترسانتها فان جزءاً عظيماً منها قد بيع

انشأ المرحوم علي باشا مبارك ناظر المعارف الاسبق مدرستين صناعيتين احداها في المنصورة والثانية في اسيوط ليكون منهما ايملحاً للتلاميذ الذين فصلوا من المدارس التجهيزية التي كانت في المديريات فالغاها الاحتلال اما مدرسة المنصورة فلم تبق طويلا لان الورشتين اللتين يملكهما بعض الانكليز في تلك المدينة قضتا على حياتها . حتى اذا كانت سنة ١٨٩٣ عادت الى حالتها السابقة واصبحت الآن ورشة بسيطة لايتعلم فيها الطلاب الا مبادئ القراءة والكتابة والهندسة والحساب والرسم العملي بعد ان كانت تعلم فيها العلوم الهندسية والميكانيكية العالية

وليس ثمت دليل على عظيم الخطأ في عدم رقي الصناعة في مصر اقطع ولا انصع من الاقوال السديدة التي ذكرها المسيو (ليوبولد جوليين) المهندس الزراعي واحد واضعي تقرير لجنة القطن الاخير فقد قال :

« ان كل امة يكثر فيها وجود المواد الاولى الضرورية للحياة يكثر فيها كذلك وجود المعامل لصنع تلك المواد فيها ومن اهمها القطن فان كل الامم التي تزرعة تنشيء بجواره معامل لغزله ونسجه والانتفاع به عدا مصر فانها لاتزال فقيرة في معاملها خلواً على الاخص من هذا الصنف »

سعى الساعون في تأسيس معملين لنسج المنسوجات القطنية في سنة ١٨٩٩ احدهما في القاهرة والآخر في الاسكندرية . اما معمل القاهرة فقد اغلق . ولايزال الآخر باقيا وفيه ثلاثون الف مشط واربعمائة نول

وقد لقي مؤسسوه صعابا جمة في تأسيسه اهمها وضع الحكومة المصرية على منسوجاته ضريبة قدرها ثمانية في المائة

ثم رأت ان تنزل هذه الضريبة الى ثلاثة في المائة لمدة خمس سنوات . فعسى ان

تجعل الحكومة هذا الاعفاء دائما حتى يتيسر لمروجي هذه الصناعة ان ينشروها في كل مكان

على ان في البلاد المصرية غير هذا المعمل نحو ستة آلاف وثلاثمائة نول للنسج وكلها للوطنيين وهي تستورد خيوط الغزل من الممالك الاوربية وقد استوردت في سنة ١٩٠٨ من هذه الخيوط ما قيمته ٢٢٩٠٠٠ ج

على انما تستهلكه البلاد المصرية في عام من المنسوجات الاوربية بلغت قيمته في سنة ١٩٠٨ ٤٠٠٠٠٠٠٠ ج ولو كانت مصر تنسج منسوجاتها في معامل لحسابها لبقيت هذه الملايين في خزائنها ولم تنقل الى خزائن المعامل الاوربية

وقد فكر بعض ذوي النفوس العالية في الحال وفي مقدمتهم المرحوم مصطفى كامل باشا الذي اقترح على الامة في سنة ١٩٠٢ انشاء معهد صناعي كبير يكون بمثابة تذكار لمرور مائة عام على تولية محمد علي باشا الكبير مؤسس البيت الخديوي فلبت جمعية العروة الوثقى بمدينة الاسكندرية نداءه واخذت في الاكتتاب لتأسيس مدرسة محمد علي الصناعية فوجدت من نفوس الامة ارتياحا واقبل على الاكتتاب الكثيرون وفي مقدمتهم الخديو واعضاء الأسرة الخديوية وكرماء الاوربيين القاطنين في مصر

وما جاءت سنة ١٩٠٨ حتى كان بناؤها عاليا ووضعها محكما وهي اليوم تقدم للثغر احسن الاعمال وتكفي الكثيرين من ابنائه ثم نحا اهل الخير هذا النحو فتأسست مدرسة في اسيوط بهمة محمود باشا سليمان احد كبار الاعيان وتأسست مدرسة في بني سويف وثالثة في الفيوم

وقد عني الامير حسين كامل باشا بالاكتتاب لمدرسة كبرى صناعية لمديرية البحيرة فلبى دعوته كثير من الاعيان الاغنياء وبلغ الاكتتاب نحو ٣٠٠٠٠ جنيه وظهرت هذه المدرسة في اجمل مظهر وهي تعمل الآن اعمالا مفيدة

وكذلك عنيت بطريركية الاقباط واسست مدرسة صناعية كبرى في بولاق اكتتب لها الكثير من ابناء هذه الطائفة ببالغ طائلة وكذلك مدرسة طوخ الصناعية فانها شيدت في هذه الايام الاخيرة على احسن طراز وغير ذلك من الورش الصغيرة .

واخيراً فكر يوسف كمال بك في ان يخدم امته من طريق العلم والصناعة فاسس مدرسة لتعليم الفنون الجميلة ووقف عليها عقاراً يقدر بخمسين الف جنيه واخذ في تشييد دار كبيرة لها واختار لها مديراً افرنسيا هو المسيو لايلاني النحات النابغة الشهيرة

ووكيلا هو فؤاد افندي حسيب واختار اساتذتها من الاوربيين والمصريين المشهود لهم بعلو الكعب والتفوق في هذه الفنون الجليلة

فاعاد الامور بانشاء هذه المدرسة الى مصر روح النحت والنقش والظل وفن العمارة وغير ذلك من الفنون الجميلة الكبيرة التي تعود على مصر لا محالة بجليل الفوائد

لحوم البشر

ان عادة اكل اللحوم البشرية غير محصورة في مكان ففي الكتب اليونانية القديمة اشارات اليها والايرلنديون الاقدمون كانوا يأكلون موتاهم وفي مكسيكو وبيرو قبل فتوح اسبانيا كانت تشهر الحروب ليستحصلوا ذبائح من البشر لاعيادهم وولائمهم

لكن بولينيزيا لم تزل محافظة على هذه العادة الى عصرنا الحاضر ومبتدعو تلك العادة في تلك الجزائر هم سكان جزائر الفيجي وهي عندهم من الفروض الدينية وهم مولعون بطعم لحوم البشر الى درجة ان احدهم كان يعيش مع امرأة له عيشة راضية فلا يكون منه الا ان يقتلها ويقتات بلحمها كما رواه وليم في كتابه عن سكان الفيجي وهم لا يفضلون لحم الطفل على لحم الرجل او المرأة المسنة بل يأكلون ما تيسر بعد شيء .

من اقطع العقوبات عندهم انهم يبترون اطراف المجرم وهو حي ينظر اليها تشوى وتؤكل

ومن افظع ما يروى ان رجلا من اهل هذه الجزيرة كان يفاخر بانه اكل مدة حياته ٩٠٠ انسان وهو مع ذلك يقري الضيف وليس عنده من الشراسة اكثر من باقي سكان الجزيرة ممن لم يأكلوا لحم بشر مدة حياتهم . ويروى ان شيكا زعيم احدى جزائر الفيجي اسر في ساحة الحرب ما يربو على مائتي مقاتل من عسكر العدو وفي صباح ذلك اليوم اولم وليمة دعا اهل الجزيرة لحضورها ومشاركته بالتمتع بلحم الاسرى .

وفي غيبة الجديدة عند ما يشيخ الرجل ويصبح غير قادر على العمل يأخذه اهله ويربطونه الى غصن شجرة ويجتمعون حوله يرقصون ويغنون بقولهم « الثمرة قد نضجت الثمرة قد نضجت » ثم يهزون الغصن فيقع الشيخ على الارض فيأكلونه . وفي جزائر الهبريز الجديدة يفضلون اكل لحوم السود على لحوم البيض وهذه العادة ايضا منتشرة بين سكان كليدونيا الجديدة .

يقول المستر تيلور في كتابه عن زيلندا الجديدة ان الطريقة المتبعة هي انهم يرسلون سللا مملوءة بلحوم البشر من طرف الزعيم الى اعوانه فمن قبلها منهم يأتي الى الموعد

المضروب بجموعه للمساعدة وهم يعدون من لايذهب الى الحرب ويأكل من لحوم البشر « غير مهذب » وبعد انتهاء المعركة تجتمع جثث القتلى وتنزع لحومها عن العظام وترسل الى بيوت الانصار والحلفاء .

والمزية الوحيدة في تلك العادة ان الذين يتولون تقطيع الفريسة وتمزيق لحمها يصبحون على شيء من المعرفة في تركيب اعضاء الانسان لذلك تراهم ماهرين في رد خلع المفاصل . هذا وقد اخذت تخف وطأة هذه العادة منذ اخذت المدنية الحديثة تدخل الى تلك الجزائر اه . ملخصاً عن مجلة الاثري الاميركي

الصور السمائية

تكلم احمد بك زكي في محاضرة التي نشرتها مجلة المقتبس في الجزء السادس من المجلد الخامس تحت عنوان (الكتابة والكتب ودورها) على كتاب (الصور السمائية) لعبد الرحمن ابن عمر بن محمد بن سهل الصوفي فقال عنه : واذا بحثتم في ارض مصر من الشلالات الى الاشاتيم ومن بادية العرب الى صحراء لوبيا لاتجدون سوى الترجمة الفرنسية وسوى الترجمة الفارسية في دار الكتب الخديوية اما الاصل العربي فقد لبس طاقية الاختفاء وتطاير في الفضاء وهجر ديارنا وواصل غيرنا فيما وراء البحار ورحل عن ارض اهين بها الى بلاد ظهرت قيمته بين اهلها بحيث ان العرب الذين صدر الكتاب بلغتهم اذا احتاجوا الآن لمراجعته وجب عليهم ان يتلقنوا احدى هاتين اللغتين الفرنسية او الفارسية او ان يذهبوا الى بطرسبرج وان استبعدوها فالى باريس وهنالك يجدون منه خمس نسخ استغفر الله بل ستا لان السادسة هي التي سأتكلم عليها الخ

وحينما تلوت هذه العبارة تذكرت اني رأيت هذا الكتاب من نحو خمس سنين في المكتبة الاحمدية التي نوهت مجلة المقتبس في ذاك الجزء بذكرها وذكرت بعضاً من نفائس كتبها فدعاني ذلك ان استفتح المكتبة واعيد النظر الى هذا الكتاب واكتب شيئاً عنه تبشيراً لعشاق هذا العلم بوجود هذا الكتاب في هذه البلاد بلغة الناطقين بالضاد لعلهم يسعون في طبعه ويقتبسون من غر فوائده

اوله بعد البسملة

قال عبدالرحمن بن عمر المعروف بابي الحسن الصوفي بعد ان حمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله المصطفى وآله (امابعد) فأني رأيت كثيراً من الناس يخوضون في طلب معرفة الكواكب الثابتة في مواضعها من الفلك وصورها ووجدتهم على فرقتين احداهما

تسلك طريقة المنجمين ومعولها على كرات مصورة من عمل من لم يعرف الكواكب باعيانها وانما عولوا على ماوجدوه في الكتب من اطوالها وعروضها فرسموها في الكرة من غير معرفة خطائها وصوابها فاذا تأمل من يعرفها فيها وجد بعضها مخالفا في النظم والتأليف لما في السماء او على ماوجدوه في الزيجات وادعى مؤلفها انهم قد رصدوها وعرفوا مواضعها وانما عمدوا الى الكواكب المشهورة التي يعرفها كثير من الخاص والعام مثل عين الثور وقلب الاسد والسماك الاعزل والشلة التي في جبهة العقرب وقلب العقرب وهذه الكواكب هي التي ذكر بطليوس انه رصدها باطوالها وعروضها واثبتها في كتابه المعروف بالمجسطي لقربها من منطقة فلك البروج فرصدوها واثبتوا مواضعها في وقت ارصادهم ثم قال بعد كلام طويل :

واما الفرقة الاخرى فانها سلكت طريقة العرب في معرفة الانواء ومنازل القمر ومعولهم على ماوجدت في الكتب المؤلفة في هذا المعنى ووجدنا في الانواء كتبا كثيرة اتمها واكملها في فنه كتاب ابي حنيفة الدينوري فانه يدل على معرفة تامة بالاخبار الواردة عن العرب في ذلك واشعارها واسجاعها فوق معرفة غيره ممن القوا الكتب في هذا الفن ولا ادري كيف كانت معرفته بالكواكب على مذهب العرب عيانا فانه يحكى عن ابن الاعرابي وابن كناسة وغيرهما اشياء كثيرة من امر الكواكب يدل على قلة معرفتهم بها وان ابا حنيفة لو عرف الكواكب لم يسند الخطأ اليهم ثم كل من عرف من الفرقتين احدى الطريقتين لم يعرف الاخرى والف في كتابه اشياء من غير الفن الذي اخذ فيه نادى على نفسه بها بالخطإ وخفة البضاعة فيه منهم ابوحنيفة فانه ذكر في كتابه ان البروج الاثنا عشر لم تسم بهذه الاسماء الا لان نظم كواكبها مشاكل للصورة المسماة باسمها وان الكواكب تنتقل عن اماكنها واسماء البروج غير زائلة وان زال نظم الكواكب ولم يعلم ان نظمها لايزول ولايتغير (الى ان قال) وقد كنت اظن باني حنيفة ان له رياضة بعلم الهيئة والرصد فقد كنت بالدينور في سنة خمس وثلثين وثلثمائة من سني الهجرة في صحبة الاستاذ ابي الفضل محمد بن الحسين نازلا في جوزته وحكى لي جماعة من المشايخ انه كان رصد الكواكب على سطح هذه الحجرة سنين كثيرة فلما ظهر تأليفه وتأملت ماادوه، كتابه علمت ان الذي كان يراعيه انما كان طلب الظاهر المشهور من الكواكب وما كان يجده في كتب الانواء من ذكر المنازل وما اشبهها والناس كلهم متفقون على ان لهذه الكواكب حركة الى توالي البروج

ثم قال بعد كلام طويل :

ولما رأيت هؤلاء القوم مع ذكرهم في الآفاق وتقدمهم في الصناعة واقتداء الناس بهم واستعمالهم مؤلفاتهم قد تبع كل واحد منهم من تقدمه من غير تأمل لخطائه وصوابه بالعيان والنظر حتى ظن كل من نظر في مؤلفاتهم ان ذلك عن معرفة بالكواكب ومواقعها ووجدت في كثيرهم من التخلف ولاسيما في كتب الانواء من حكاياتهم عن العرب والرواية عنهم اشياء من امر المنازل وسائر الكواكب ظاهرة الفساد لو ذكرتها طال الكتاب بلا فائدة عزمت مرات كثيرة على اظهار ذلك وكشفه وكان يعتريني فتور في حال واشغال تصدني عن المراد في اخرى الى ان شرفني الله بخدمة الملك عضد الدولة ابي شجاع بن ركن الدولة رحمه الله تعالى وانعم عليّ بادخالي في جملة خوله وحشمه ووجدته من فنون العلم متمكنا وفي المعرفة بها منبسطا وعلى عامة العلماء مقبلا والى جميعهم محسنا ورأيته كثير الذكر لاحوال الكواكب مائلا الى امتحانها والوقوف على مواقعها من الصور ومواضعها من البروج والدرج بالرصد والعيان ولم اجد بحضرته من المنجمين من يعرف شيئاً من الصور الثماني والاربعين التي ذكرها بطليموس في كتابه المعروف بالمجسطي على حقيقتها ولا شيء من الكواكب التي في الصور على مذهب المنجمين ولا على مذهب العرب الا اليسير الظاهر المشهور الذي يعرفه الخاص والعام ولم اجد لمن تقدمني من العلماء ايضاً كتاب في احد الفنين يوثق بمعرفة مؤلفه الا كما تقدم ذكره ولا يمكن الرصد الا بمعرفة الصور وكواكب كل صورة بالنظر والعيان فرأيت ان اتقرب اليه بتأليف كتاب جامع يشتمل على وصف الصور الثماني والاربعين وعلى كواكب كل صورة منها وعددها ومواقعها من الصور ومواضعها من فلك البروج باطوالها وعروضها وعدد كواكب الفلك كلها المرصودة التي من الصور والتي حوالى الصور وليست منها

وبعد كلام طويل اخذ المؤلف يتكلم على الصور الثماني والاربعين صورة فصورة مع اثبات نفس الصورة ونقشها بحروف وارقام عند موضع كل كوكب غير ان اربع عشرة صورة منها ليس عليها شيء من الحروف والارقام وخالية من الاشارات الى مواضع الكواكب

وبعد ان ينتهي من الكلام على كل صورة يذيله بجدول فيه اسماء كواكب تلك الصورة وارقام تدل على مواضع تلك الكواكب فيها والكتاب في ١٢٧ صفحة بقطع قريب من الكامل قال ناسخه في آخره : وافق الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة

المسماة بكواكب الصوفي في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمس بعد الالف وتحت ذلك ثلاثة اسطر اخر لم يقرأ منها سوى (المقري الموقت يومئذ بجامع حلب الشهباء الكبير عمره الله تعالى) حلب : محمد راغب طباخ

المعادن المذخورة

نشر المؤتمر الجيولوجي الدولي الحادي عشر الذي التأم في استوكهلم خلاصة التقارير التي طلبها من علماء طبقات الارض والمهندسين في مناجم العالم على اختلاف الاصقاع والديار بشأن مناجم الحديد في العالم بأسره وتقسيمها فتبين منها ان مايعرف الآن من المناجم في الدنيا يحتوي على عشرة مليارات طن وربما لايقل المذخور في بطون تلك المناجم عن خمسين الف طن وما ينبغي للعالم اليوم هو ستون الف طن وكان يكتفي سنة ١٨٧١ بثلاثة عشر مليون طن وسنة ١٨٩١ بستة وعشرين مليون طن وسنة ١٩٠١ باحدوار بعين مليون طن واذا قدرنا مايلزم العالم من الحديد اليوم ومايعرف من مناجمه المذخورة فلا يكفي الحديد سوى قرنين آخرين واذا لم تتدارك الحال بالبحث عن مناجم جديدة يختل المعدل واليك جدولاً بما هو مذخور من الحديد في القارات الخمس ومنه ماعرف ومنه ما يقدر تقديراً وهو بحساب مليون طن :

	مناجم يرجى ان تكون مذخورة		مناجم معروفة مذخورة	
	حديد	حديد ممزوج بتراب	حديد	حديد ممزوج بتراب
اوربا	١٢٠٨٥	٤١٨٢٩	٤٧٣٢	١٢٠٣٢
اميركا	٤٠٧٣١	٨١٨٢٩	٥١٥٤	٩٨٥٥
اوستراليا	٣٧	٦٩	٧٤	١٣٦
آسيا	٢٨٣	٤٥٧	١٥٦	٢٦٠
افريقية	؟	؟	٧٥	١٢٥

وجاء في جدول آخر ذكرت فيه المناجم المعروفة والتي يرجى كشفها في كل مملكة على حدتها من ممالك اوربا فكانت المملكة العثمانية كثيرة جداً بمناجمها الا انه لايعرف مقدارها الآن وتبين ان فرنسا اكثر ممالك اوربا بمناجمها المعروفة

مخطوطات ومطبوعات

بدائع الصنائع

في ترتيب الشرائع للامام علاء الدين ابي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي المتوفى سنة ٥٨٧ هـ طبع بمصر سنة ١٣٢٨

اعتاد محمد امين افندي الخانجي صاحب المكتبة المشهورة في القاهرة والاستانة ان يطبع للامة كل نافع من آثار سلفها الصالح فاحيا باقدامه عدة أمهات ومنها هذا الكتاب في الفقه الحنفي تعرض فيه مؤلفه الملقب بملك العلماء لاقسام المسائل وفصولها وتخريجها على قواعدها واصولها ليكون اسرع فهماً واسهل ضبطاً وايسر حفظاً وقد جمع جملا من الفقه مرتبة بالترتيب الصناعي والتأليف الحكمي مع ايراد الدلائل الجلية والنكت القوية وهو في سبعة اجزاء تم الاول والثاني والخامس والسادس والسابع منها وسيتم الجزآن الآخران وقد وقع في نحو ٢٥٠٠ صفحة بالقطع الكامل على ورق جيد وحروف مصرية ولا شك ان المشتغلين بفقه الامام الاعظم يحلون هذا الكتاب محله من الاعتبار كما احل المالكية المدونة الكبرى المنسوبة للامام مالك والشافعية كتاب الام للشافعي فيعد عندهم مرجعاً واسعاً

الدولة الاسلامية او ماضي الشرق وحاضره

تأليف الشيخ احمد الصابوني الحموي طبع الجزء الاول في مطبعة حماة سنة ١٣٢٨ ص ٢٠

كان الفاضل صاحب هذا الكتاب نشره مقالات متسلسلة في جريدته لسان الشرق فاستحسنها قراؤها فاعاد طبعها مع زيادات على هذه الصورة فجاءت شاهدة بفضله وبعد نظره وكتابته التاريخ على هذا الاسلوب اوقع في النفوس واعلق في الاذهان لانها عبارة عن التدبير في اعمال الرجال . فقد تكلم على طائفة من الخلفاء الراشدين والملوك الامويين والعباسيين فكان كلامه فلسفة على آثارهم وبيان الحكمة من اعمالهم . ومما رواه المؤلف نقلا عن ابن عبد ربه ان عثمان حينما كبر وتقدم في العمر شد اسنانه بالذهب وقال غيره انه وضع سناً من ذهب ومعلوم ان تركيب السن من الذهب لا يكون الا بمهارة في الصناعة وعلم بها عظيم . وعبارة المؤلف منسجمة وعساه يوفق الى نشر بقية الاجزاء ليعم نفعه

الاسكا وكلونديك

تأليف جبرائيل افندي عساف مرعي من دوما (لبنان) طبع بمطبعة الحضارة بطرابلس الشام سنة ١٩٠٩ ص ٢٢٨

مؤلف هذا الكتاب ممن اقاموا زمناً طويلاً في بلاد الاسكا وكلونديك بلاد الذهب فعنّ له ونعما فعل ان يكتب ما عرفه عن هذه البلاد وغناها ومدنها ومناجمها وركازها وزرعها وضرعها وصيدها وسكانها وحكومتها وادارتها وحالتها الطبيعية وما يتعلق بتلك البلاد من الفوائد الاجتماعية والاقتصادية التي تفيد الجالية العربية الى تلك البلاد وابناء العربية كافة في الاطلاع على عجائب صنع الله في ارضه وهذه البقعة الصغرى منها التي بلغت مساحتها بحسب الاحصاء الاخير ٥٩٠٨٤٤ ميلا مربعاً اي نحو خمس مساحة الولايات المتحدة ويناهز طول سواحلها البحرية ٢٦ الف ميل وهي كما قال المؤلف سعة بالغة تزيد عن محيط الارض عند خط الاستواء . وبالجملة فان هذا السفر نافع في بابه وياحبذا لو تصدى كل من ينزل منا قطراً شاسعاً من اقطار الارض فيصفه بما ينبغي خدمة للعلم ورجال المال والاعمال لتذكر لهم على الدهر مقرونة بالثناء الطيب والذكر العطر

تقويم البشير

ظهر هذا التقويم الذي تصدره مطبعة الآباء اليسوعيين كل سنة وهذه هي السنة الرابعة والثلاثون لظهوره وهو تأليف الاب لويس معلوف وفيه حساب السنين على اختلاف انواعها من شمسية وهجرية وقبطية واسرائيلية واعياد المسيحيين واصوامهم واسماء الرؤساء الروحيين فيهم ومراكزهم في المملكة العثمانية وغيرها ولا سيما البابويين منهم وجدول المعدودات ورؤساء الممالك العثمانية والتقسيمات الادارية في الدولة العثمانية ولاسيما في سورية واسماء الجرائد والمجلات والمطابع في بيروت ولبنان وفيها نحو ٥٧ جريدة ومجلة وبعض وصايا صحية وفوائد علمية وبيتية ولطائف في ١٧٦ صفحة جيدة الطبع والحرف